مقدمة في تاريخ الطب العربي

دكتور ماهر عبد القادر محمد علي

دار العلوم العربية

مقدمة
في تاريخ الطب العربي

مقدمة
في تاريخ الطب العربي

دكتور
ماهر عبد القادر محمد علي
قسم الفلسفة - جامعة الإسكندرية
جامعة بيروت العربية

دار العلوم العربية
للطباعة والنشر



الطبعة الأولى
١٤٠٨هـ ١٩٨٨م

الناشر
دار العلوم العربية
للطباعة والنشر
مقابل جامعة بيروت العربية
بناية عنان
هاتف: ٣٠٧١٧٣
ص.ب: ٩٥٣٥-١١
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ لَا يكَلِفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كسبت وعليها ما اكتسبت رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَآ إِنْ نَّسِينَآ أو أخطأنا ربنا ولا تحمل عَلَيْنَا إصراً كما حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ من قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِلْنَا مَا لَا طاقَةَ لَنَا بِهِ وَٱعفُ عَنَّا وَٱغفِر لَنَا وَٱرْحَمنآ أَنْتَ مَوْلَنَا فَٱنْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكٰفِرِينَ ﴾.

[سورة البقرة، الآية/ ٢٨٦]

إلى الروح الطاهرة . . .

إلى روح والدتي التي غادرت الدار الدنيا

وأنا في سفرة عمل . . .

تصدير الطبعة الأولى

منذ بداية القرن الحالي وُجهت اهتمامات متعددة من جانب المؤرخين في الغرب ، وأيضاً من جانب بعض العرب ، خاصة في مجال الطب ، للكشف عن تاريخ الطب العربي ، وموضعه من الأبحاث العلمية التي قام بها العلماء العرب حتى قبيل سقوط الأندلس .

وبطبيعة الحال فإن هذه الدراسات لم تنته رغم سيل الدراسات التي صدرت في الفترة الأخيرة ـ ولا زال البحث العلمي المتواصل ينقب ويبحث عن جديد ، ليحاول أن يقف على حقيقة بنية الفكر العلمي العربي ، حتى يمكن من خلال هذا البحث أن يعرض علينا حلقة البحث في تاريخ الطب بصورة متكاملة وشبه مقنعة لتتسق جوانب وملامح الصورة العلمية عند العرب .

والذي لا شك فيه أن أبحاث الطب العربي بدأت بعبقرية رجل واحد ، هو الطبيب والعالم والمترجم الفذ حنين بن اسحق الذي أخرج لنا روائع الطب اليوناني الأبقراطي والجالينوسي في فترة هامة من فترات النقل العلمي من منتصف القرن الثاني الهجري إلى منتصف القرن الثالث الهجري .

كانت هذه البداية بمثابة قوة الدفع الأساسية التي وضعت تراث

القدماء أمام المسلمين ، وفي نفس الوقت حفزتهم إلى دراسات جديدة ومتابعات لأبحاث أبعد . نقول كانت البداية لرجل واحد .

ثم انطلق علماء المسلمين الذين كانت لهم صولات وجولات في مجال الطب على وجه الخصوص فوجدنا الإسهام والعبقرية في هذا الجانب موضع تقدير من علماء الغرب . وسوف نتبيّن في هذا البحث مقدار وحجم التقدم الذي أحرزه المسلمون بعبقرية متفتحة على كل ما هو جديد في عالم البحث العلمي .

إن الكتابات تؤكد أن التأريخ للطب يبدأ بشخصية يحيى النحوي ـ تلك الشخصية التي ثار الجدال حولها كثيراً ، ولا يزال ـ ثم تطورت المسألة إلى أن اخذت وضعها الطبيعي عند مؤرخين للطب من الطراز الأول مثل أبو سليمان المنطقي السجستاني ، وأبو حيان النويري ، وأبي جلجل ، وصاعد الأندلسي ، في القرن الرابع الهجري . لكن بمقدم القرن السابع الهجري ظهرت كتابات أكثر تخصصاً في تاريخ الطب ، وظهرت دراسات تؤرخ للحركة ككل بصورة شبه موضوعية ودقيقة ، ترسم خريطة للحياة العلمية الطبية في العالم الإسلامي . ومن أهم هذه الكتابات ما دوّنه ابن أبي أصيبعة في « عيون الأنباء في طبقات الأطباء »، وما كتبه ابن القفطي في « تاريخ الحكماء »، وما دوّنه ابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان ».

يستند هذا البحث إلى فرضيتين أساسيتين : الأولى ، أن المسلمين اتبعوا المنهج العلمي في دراستهم في مجال الطب . والثانية ، أنه كانت هناك عبقرية عربية إسلامية حقيقية ، وهناك نماذج متعددة لتلك العبقرية ، ومن بين هذه النماذج يظهر ويلمع اسم ابن النفيس . لقد أردت أن أناقشه في إشكاله لدى الغرب، وفي عبقريته التي شهد العالم بها .

لقد كانت الفرصة التي أتيحت لي أثناء العمل في بحث عن حنين بن اسحق شيخ ومؤسس مدرسة الترجمة العربية ، وكذا عن ابن النفيس الفقيه المسلم الطبيب العلامة الذي حققنا شرحه لفصول أبقراط الطبيب الحكيم كان لهذين العاملين أثرهما في تتبع الفرضيتين في صبر وأناة ، بحيث أصبح بالإمكان إلقاء الضوء على العديد من المشكلات التي تحتاج فعلاً إلى دراسة وبحث وعناء .

وقد أفدت ، بلا شك ، من كتابات عديدة صدرت قديماً وحديثاً حول هذا الموضوع ، ولا يتسع المجال لذكرها الآن .

هذا وقد دارت مناقشات علمية جادة وعديدة حول هذا البحث في جلسات علمية جمعتني بأساتذة أجلاء وزملاء أفاضل وبعض تلامذتي في جامعتي الإسكندرية وبيروت العربية الذين كان لمناقشاتهم وتساؤلاتهم الفضل في هذا التوجه ، وإني إذ أشكرهم جميعاً على ما أبدوه من ملاحظات ، أوجه شكراً خاصاً لأستاذي وصديقي الدكتور جلال شرف أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الإسكندرية وبيروت العربية على مناقشاته الممتعة المتعمقة التي تظهر أصالته ورسوخ قدمه في فهم قضايا الفكر الإسلامي . وكذا أتوجه بالشكر والعرفان إلى تلميذي يوسف زيدان (وهو بصدد الحصول على درجة الدكتوراه) وتلميذي محمد عباس المدرس المساعد بقسم الفلسفة ، فكلاهما قدم لي معاونات صادقة وجادة وأنا أبحث عن كتاب هنا أو هناك .

أما الشكر الخاص فإني أتوجه به لكل من الصديقين الفاضلين الدكتور محمود المراغي ، والدكتور احمد شوقي على ما تفضلا به من ملاحظات استفدت منها تماماً قبل أن يطبع البحث ، فلهما مني الشكر والعرفان

وأخيراً ، أراني أيضاً لم أوف البحث حقه تماماً ، وأشعر أني لا

زالت بي حـاجة إلى الاستـزادة والدرس والتعمق ، وأرجـو أن أتمكن في وقت لاحق من تعديل أو إضافة ما قد يراه الزملاء والأصدقـاء والنقاد ومن لهم خبرة بالتراث وتاريخ العلوم .

وبالله التوفيق .

الفاتح من سبتمبر (أيلول) ١٩٨٧ **ماهر عبد القادر**

الفصل الأول

مدخل في المعرفة بالتراث الطبي في العالم الاسلامي وأوائل التراجمة

مدخل في المعرفة بالتراث الطبي
في العالم الإسلامي وأوائل التراجمة

الحديث عن إسهام علماء المسلمين في ميدان الطب والجراحة والصيدلة وما يتعلق بها جميعاً من فروع التخصصات الأخرى ، يطلعنا علي أن الإسهامات الإسلامية قد خلّصت الطب القديم من صور الجهل والشعوذة . فالطب لدى القدماء اختلط بالسحر إلى حد كبير ، ولكن علماء المسلمين كعادتهم كانوا يبحثون كل علم من العلوم ويدرسونه ، ويقفون على ما حققه القدماء وينقدون آراءهم، ويشيرون إلى ما أصابوا فيه ، وما أخفقوا فيه ، من أجل الوصول إلى الحقيقة والوقوف على مبادىء العلم وأصوله . فضلاً عن هذا فإنهم أضافوا إضافات جديدة ومبتكرة ، ولم يقدموا آراء إلا بعد العديد من المشاهدات والتجارب العلمية ، ثم كانوا يعرضون المادة العلمية بطريقة منطقية متسلسلة تبدأ بوضع المشاهدات والملاحظات العديدة في مقدمات تتدرج من الأبسط إلى الأعقد وهكذا .

اتصلت دراسة الطب عند المسلمين بدراسات أخرى مثل الكيمياء وعلم النبات والجغرافيا،وكان أغلب الأطباء الذين يعملون بالطب يسهمون في مجالات علمية أخرى أكثرها يتصل بالطب وفروعه . ولهذا السبب ذاعت شهرة أفاضل علماء الطب في أنحاء المعمورة ، وتشير الدراسات التي بين أيدينا إلى إجماعها على نتيجة هامة لخصها حيدر

بامات في عبارته التي يقول فيها : « ولقد لعب الأطباء المسلمون دوراً حاسماً في العلوم الطبية في الغرب . فقد ظلت كتابات الرازي وابن سينا وأبي القاسم وابن زهر أساس العلوم الطبية في الجامعات الأوروبية على مدى قرون عديدة . فقد حازت المعاهد الطبية في سالرينو وخاصة في مونبلييه شهرة عالمية »[1] . والواقع أن هذا الرأي يوضح لنا مكانة الأطباء المسلمين ، والدور الهام الذي لعبوه في تأسيس الطب كعلم في العالم الأوروبي . ففي الوقت الذي كانت فيه الكنيسة الغربية تُحرم الطب كفن يقوم على أسس علمية وتفرض على معتقدات الناس تعليل الأمراض بأسباب لاهوتية لا ينبغي الخروج عليها، كان المسلمون يضعون أسس الطب كعلم من الناحية النظرية ، وكفن من ناحية الممارسة ، بحيث اتبع المنهج العلمي الدقيق في الطب بكل خطواته .

لقد ترجمت بعض الكتب والرسائل الطبية القديمة قبل عصر الترجمة الرسمي ، فيذكر ماكس مايرهوف أن المسلمين حينما اتجهوا إلى غزو شمال أفريقيا وغرب آسيا ، التقوا بمدرسة جند يسابور وهي من المراكز الثقافية والعلمية المعروفة ذائعة الصيت وهناك التقوا بالأطباء « ومعظم هؤلاء الأطباء من النصارى ومن بينهم يهود ذوو أسماء عربية فـ(ماسرجويه) اليهودي الفارسي الذي ترجم (كناش أهرون) في الطب إلى اللغة العربية ، ربما كان أقدم كتاب صدر بتلك اللغة »[2] . وفي

---

(١) حيدر بامات ، اسهام المسلمين في الحضارة الإنسانية ، ص ١١٠ .

(٢) ماكس مايرهوف ،العلم والطب ، ص ٤٥١ ـ ص ٤٥٢ .

وما سروجويه هذا الذي يذكره ماكس مايرهوف كان في أيام مروان بن الحكم ، ويذكر ابن جلجل (في كتابه « طبقات الأطباء والحكماء » ص ٦١) أن ماسرجويه « تولى في الدولة المروانية تفسير كتاب أهرن بن أعين النفس إلى العربية » . ومع أن ماكس مايرهوف يذكر أن ماسرجويه « يهودي » ، إلاّ أن فؤاد سيد في تحقيقه لكتاب « طبقات الأطباء والحكماء » يذكر في هامش الصفحة أن العنوان الذي خصصه ابن =

هذا ما يشير صراحة إلى اتصال وثيق بعلوم الطب القديمة قبل العصر الرسمي للترجمة . لكن منذ أن بدأت حركة الترجمة بصورة دقيقة ومنظمة في ظل الدولة العباسية ، بدأت المعارف الطبية القديمة تتسرب إلى العالم الإسلامي بصورة قوية من خلال الترجمات ، التي كان من أهمها على الإطلاق ترجمة أعمال جالينوس[٣] الطبية التي قام بها حنين

= جلجل للطبقة السادسة من الأطباء الذين ينتمي إليهم ماسرجويه هو : « ممن لم يكن في أصله رومياً ولا سريانياً . ولا فارسياً ؟ ويذكر الفقرة التالية « والمؤلف يذكر أن ماسرجويه سرياني. وهذا صحيح ؟ » (هامش ١ ص ٦١). وترجع أهمية ماسرجويه الطبية إلى أن له بخلاف الكناش المذكور من التصانيف « كتاب قوي الأطعمة ومنافعها ومضارها وكتاب قوى العقاقير ومنافعها ومضارها » على ما يذكر ابن القفطي في « تاريخ الحكماء » ص ٢١٣ .

إلا أنه من الملاحظ أن نص ماكس مايرهوف اعتبر ماسرجويه بداية النقل في الطب إلى العربية ، وحدد النص هوية الرجل بأنه « يهودي » ، لكن ربما أمكن لنا أن نعثر على ملاحظة تخالف رأي مايرهوف ، إذ من الواضح كما يروى لنا ابن جلجل أيضاً أن الحارث بن كلده كان أول من مارس الطب في أوائل الإسلام فقد عاصر الرسول وتوفي على أيام معاوية ، يقول ابن جلجل عنه « تعلم الطب بناحية فارس واليمن وتمرن هنالك وعرف الدواء ، وكان يضرب العود ، تعلم ذلك أيضاً بفارس واليمن ، وبقى أيام رسول الله صلّى الله عليه وسلم » (ابن جلجل ، ص ٥٤) ، ويذكر أيضاً بعد سطور قليلة « ويروى عن سعد بن أبي وقاص . قال : مرضت مرضاً ، فعادني رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فقال لي : إيت الحارث بن كلدة ، فإنه رجل يطبب » (ابن جلجل ص ٥٤ وكذلك ابن القفطي ص ١١٢) . وقد ذكر ابن أبي أصيبعة في « عيون الأنباء » نص المحاورة الطويلة التي دارت بين كسرى أنوشروان والحارث بن كلدة (ص ١٦٢ ـ ص ١٦٣) والتي جاء فيها سؤال كسرى للحارث حين سأله « فما أصل الطب ؟ قال : الأزم . قال : فما الأزم ؟ قال ضبط الشفتين والرفق باليدين . قال أصبت ، . . . » مما يدل على خطأ ابن جلجل الذي يذكر « وقال له معاوية : ما الطب يا حارث ؟ فقال : الأزم يا أمير المؤمنين ، يعني الجوع » ص ٥٤ . وقد ذكر ابن أبي أصيبعة أن للحارث كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أنوشروان .

(٣) يذكر ابن جلجل أن جالينوس « برع في الطب والفلسفة وجميع العلوم الرياضية وهو ابن سبع عشرة سنة ، وأفتى وهو ابن أربع وعشرين، وجدد من علم أبقراط وشرح

= من كتبه ، ما كان قد درس وغمض على أهل زمانه . وكانت له بمدينة رومة مجالس عامية ، خطب فيها وأظهر من علمه بالتشريح ما عرف به فضله وبان به علمه . . .
وهو مفتاح الطب ، وباسطه وشارحه بعد المتقدمين ، وله في الطب ستة عشر ديواناً كلها معلقة بعضها ببعض ، شرط على طالب الطب حفظها . . .
راجع ، ابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٤١ ـ ص ٤٤ .
وقد ذكر ابن جلجل مؤلفات وشروحات جالينوس ، وكذلك ذكر ابن النديم في الفهرست ثبت الستة عشر كتاباً التي كان يقرأها المتطببون ، ثم ذكر الكتب الخارجة على الستة عشر . ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٨ ـ ص ٣٤٩ .
وكذلك ، ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ٩٠ ـ ٩٢ .
ويبدو أن ابن القفطي لم يترك حرفاً واحداً مما ذكره ابن النديم في الفهرست . أما الكتب الستة عشر التي كان يقرأها الأطباء ، وكانت تدرس في الإسكندرية . فقد وردت تفصيلاتها في كتب التراث التي بين أيدينا ، وهي :

١ ـ كتاب الفرق .
٢ ـ كتاب الصناعة .
٣ ـ كتاب الى طوثرن في النبض .
٤ ـ كتاب إلى اغلوقن في التأني لشفاء الأمراض .
٥ ـ كتاب المقالات الخمس في التشريح .
٦ ـ كتاب الاسطقسات .
٧ ـ كتاب المزاج .
٨ ـ كتاب القوى الطبيعية .
٩ ـ كتاب العلل والأعراض .
١٠ ـ كتاب تعرف علل الأعضاء الباطنة .
١١ ـ كتاب النبض الكبير .
١٢ ـ كتاب الحميات .
١٣ ـ كتاب البحران .
١٤ ـ كتاب أيام البحران .
١٥ ـ كتاب تدبير الأصحاء .
١٦ ـ كتاب حيلة البرء .

ومعظم هذه الكتابات ترجمها حنين بن اسحق إلى العربية ونقلها نقلاً جيداً وكان يعاونه فيها حبيش بن الحسين ابن أخته . ويجد القارىء تناولاً لمجهودات حنين العلمية في بحث آخر أكثر تفصيلا .

ابن اسحق ، وكذلك كتاب « تقدمة المعرفة » لابقراط[4] الذي ترجمه حنين أيضاً وكان أقل رواجاً من جالينوس . وكانت هناك ترجمات أخرى

---

(٤) يتنزل ابن القفطي عن ابقراط الذي يسميه « بقراط » إنه « إمام فهم معروف مشهور معنى ببعض علوم الفلسفة وهو سيد الطبيعيين في عصره ، وكان قبل الإسكندر بنحو مائة سنة وله في الطب تآليف شريفة موجزة الألفاظ مشهورة في جميع العالم بين المعتنين بعلم الطب . . . » ابن القفطي ، تاريخ الحكماء، ص ٦٤ . ويذكر أيضاً ما قاله يحيى النحوي الإسكندري ـ الذي يرى أنه كان في أول الإسلام ، وهذه الشخصية لا زال الجدل حولها كثير ـ من أنه « بقراط وحيد دهره الكامل الفاضل المبين المعلم لسائر الأشياء الذي يضرب به المثل الطبيب الفيلسوف ، وبلغ به الأمر إلى أن عبده الناس وسيرته طويلة وقوى صناعة القياس والتجربة قوة عجيبة لا يتهيأ لطاعن أن يتكلم فيها وهو أول من علم الغرباء الطب ، وجعلهم شبيهاً بأولاده لما خاف على الطب أن يفني من العالم ، كما ذكر ذلك في كتاب عهده إلى الأطباء الغرباء الذين علمهم ما دعاه إلى ذلك ، وذكر يحيى النحوي أن بقراط كان في أيام بهمن بن أردشير ، . . وظهر بقراط سنة ست وتسعين بُخْتَنَصَّرْ وهي سنة أربع عشرة لملك بهمن . وقال يحيى النحوي ، وبقراط هو السابع من الثمانية الذين من اسقليبوس الأول مخترع الطب على الولاء وجالينوس الثامن ». ابن القفطي ، تاريخ الحكماء، ص ٦٤ .

ومن الواضح أن ما ذكره ابن القفطي في العبارات التي أشرنا إليها تواً ، قد نقله عن ابن النديم كما هو ، ابن النديم ، كتاب الفهرست ، ص ٣٤٦ .

وقد ذكر ابن النديم كتب بقراط ونقولها وشروحها وتفاسيرها الموجودة منها بلغة العرب وحدد لنا ما فسره جالينوس ، وقد تابعه في هذا ابن القفطي ، ونقل كل ما ذكره تماماً . والكتابات المذكورة هي ما يلي :

١ ـ كتاب عهد بقراط : تفسير جالينوس . وقد ترجمه حنين إلى السريانية ، وأضاف إليها شيئاً من جهته . وترجمه حبيش (على ما يذكر ابن النديم في الفهرست ، ص ٣٤٧ . ولم يذكر هذا ابن القفطي ، ص ٦٧) وعيسى بن يحيى إلى العربية .

٢ ـ كتاب الفصول : تفسير جالينوس ، وترجمه إلى العربية حنين بن اسحق، لمحمد ابن موسى ، وهو في سبع مقالات (كما يذكر ذلك ابن النديم في الفهرست، ص ٣٤٧)، لكن هناك إشارة يقدمها ابن القفطي تفيد أن الذي ترجم التفسير إلى العربية عيسى والمقصود به عيسى بن يحيى (ابن القفطي ، تاريخ الحكماء، ص ٦٧). إلا أن حُنيناً قد أشار في رسالة إلى علي بن يحيى إلى أن أيوب قد ترجم هذا الكتاب ترجمة رديئة ، ولما أراد جبريل بن بُخْتيشُوَّعْ إصلاح الترجمة لجأ إلى حنين .

= الذي أصلحه وترجم منه مقالة احدة إلى العربية ، ثم نقله إلى العربية بعد ذلك بناء على طلب محمد بن موسى .

وينبغي الإشارة إلى أنه توجد شروحات متعددة على كتاب الفصول لابقراط ، من أهم هذه الشروحات على الاطلاق ، ذلك الشرح الذي قدمه لنا علامة الطب العربي في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) الطبيب ذائع الصيت ابن النفيس ، وقد وضعت برنامجاً لتحقيق كتب ابن النفيس التي لم تنشر حتى الآن ، وكذا شروحاته ، وقد أنجزت شرح ابن النفيس على فصول ابقراط بالتحقيق على خمس نسخ .

٣ ـ كتاب تقدمة المعرفة : بتفسير جالينوس. ترجم النص حنين إلى العربية، ثم ترجم عيسى التفسير إلى العربية (وفي طبعة ابن القفطي التي بين أيدينا ، لم يشر إلى هذا الكتاب وينبغي أن نشير إلى أن حنين بن اسحق أشار في رسالة بعث بها إلى علي ابن يحيى إلى أن هناك ترجمتين سريانيتين على هذا الكتاب . إحداهما من عمل سرجس ، والثانية من عمل حنين الذي أخرجها لسلموية) وينبغي أن ننوه إلى أننا بصدد نشر شرح ابن النفيس على تقدمة المعرفة للحكيم ابقراط ، وهذا المخطوط والشرح الذي عليه في غاية الأهمية .

٤ ـ كتاب الأمراض الحادة : بتفسير جالينوس . وهو خمس مقالات . وقد ترجم عيسى بن يحيى منه ثلاث مقالات إلى العربية (على ما يذكر ابن النديم في الفهرست ، ص ٣٤٧ ، وكذا ابن القفطي في تاريخ الحكماء ص ٦٧).

٥ ـ كتاب الكسر: بتفسير جالينوس، ترجمة حنين بن اسحق إلى العربية لمحمد بن موسى ، أربع مقالات وكان قد ترجمه للسريانية من قبل ، على ما يذكر في رسالته إلى علي بن يحيى .

٦ ـ كتاب أبديميا : فسره جالينوس ، وهو سبع مقالات . أما المقالة الأولى فهي في ثلاث مقالات . وأما الثانية فهي في ثلاث مقالات والثالثة في ست مقالات ، والرابعة والخامسة والسابعة لم يفسرها جالينوس . أما السادسة فقد فسرها في ثماني مقالات . إلى العربي عيسى بن يحيى، وفي رسالة حنين إلى علي بن يحيى أشار إلى أن ترجمات هذا الكتاب تمت على الوجه التالي :

أ ـ إلى السريانية ، ترجم أيوب المقالات الثلاث الأولى .

ب ـ إلى العربية ، ترجم حنين المقالات الثلاث الأولى .

جـ ـ إلى السريانية ، ترجم أيوب المقالة الثانية .

د ـ إلى العربية ، ترجم حنين المقالة الثانية .

هـ ـ ترجم حنين المقالة الثالثة إلى السريانية والعربية معاً .

لبعض كتب الطب اليوناني القديم نقلت إلى العربية أيضاً بعد السريانية . وقد عكف الدارسون على فهم هذه الكتب واستيعاب ما بها ودراستها لفترة من الوقت ، ثم بدأت مرحلة الإبداع .

إن معرفة الأطباء في العالم الإسلامي بأصول علم الطب وبعض العلوم الأخرى المساعدة ، جعل هؤلاء يتفوقون ويبرعون في استنباط ومعرفة أنواع كثيرة من الأمراض والعلاج الناجع لها . ونحن نجد في كثير من كتب التراث التي وصلت إلينا أنهم اتبعوا أصول المنهج العلمي التجريبي في تشخيص الأمراض ، كما هو الحال في أيامنا هذه مع فارق واحد يرجع إلى طبيعة التطور العلمي والأساليب الفنية وإدخال الوسائل التكنولوجية الحديثة .

ونحن إذا كنا نشير إلى علم الطب بصفة عامة هنا فإنه يجدر بنا أن ننوه إلى أن علماء الطب الإسلامي فهموا أن علم الطب ينطوي على نوعين رئيسيين . أما الأول فهو الطب الوقائي ، وأما الثاني فهو الطب

= و ـ ترجم أيوب المقالة السادسة إلى السرياني .
ع ـ ترجم حنين المقالة السادسة إلى العربي .
٧ ـ كتاب قاطيطرون : تفسير جالينوس ، وهو ثلاث مقالات ، نقلها عيسى بن يحيى إلى العربية لمحمد بن موسى .
٨ ـ كتاب الماء والهواء : تفسير جالينوس ثلاث مقالات ، ترجم حنين اثنتين إلى العربية ونقل التفسير حبيش (على ما يذكر ابن القفطي ، من تاريخ الحكماء . ص ٦٧ . وهذا بخلاف ما ورد في الفهرست ص ٣٤٧ ، إذ ذكر ابن النديم أن حنيناً ترجم النص إلى العربي والتفسير حبيش بن الحسن ، مما يعني أن حنيناً نقل الثلاث مقالات كاملة .
٩ ـ كتاب الأخلاط : تفسير جالينوس ، وهو ثلاث مقالات ، نقلها عيسى بن يحيى إلى العربية لأحمد بن موسى .
١٠ ـ كتاب طبيعة الإنسان: بتفسير جالينوس ، ثلاث مقالات ، فسر النص حنين بالعربية وتولى التفسير عيسى بن يحيى (من الواضح هنا أن هناك خطأ لدى ابن النديم، نقله ابن القفطي كما هو تماماً).

العـلاجي ، وهـذا مـا يمكن أن نستخلصـه من تعـريف ابن سينـا لعلم الطب ، إذ هو يرى أن علم الطب « علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسـان من جهة ما يصح ويزول عنها لتحفظ الصحة حـاصلة وتسترد زايلة »[٥] . من هذا التعريف يتضـح أن علم الطب ، « يبحث فيـه عن بدن الإنسـان من جهـة وما يصـح ويمرض لحفظ الصحـة وهو الجـانب الوقـائي الذي ينضم على علم الصحة العامة وإبراء المرضى هو الجانب العلاجي »[٦] .

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو : كيف تطور الطب إلى أن وصل للطبيب العلامة الفيلسوف ابن سينا ، الذي تحتفظ الكتابات الطبية بصورة جيدة له ؟

لقـد أشرنـا إلى شخصية الحـارث بن كلدة ، وبيّنا كيف أنـه ـ وقد عاصر الـرسول وفقـاً لما تـرويه الكتـابات المختلفـة ـ كان شخصيـة طبية مـرموقـة في ذلك العصـر. كما تبينـا من كتـابـات ابن القفـطي وابن أبي أصيبعـة أن الحارث بن كلدة تلقى علومـه في مدينـة جنديسـابور، كعبـة الـطب والعلم آنـذاك، كمـا نقـل ابن أبي أصيبعـة محـاورتـه كـاملة مـع كسـرى أنـوشـروان ذلـك الملك السـاسـاني الـذي تبين ذكـاء الحــارث وألمعيتـه . وكمـا عُـرف للحـارث فضله الـطبي وجـدنـا ابنـه النضـر بن الحارث بن كلدة يحتل مكانته أيضاً كطبيب له أهميته في ذلك العصر .

وهنـا يمكن أن نتساءل : مـا هي المؤثرات التي تفـاعلت في البيئة العربية الإسلامية ، وأنتجت علماً للطب متقدماً شهدت له الدنيا ؟

لا جـدال في أن علم الـطب في الفتـرة الأولى من حيـاة الــدولـة

---

(٥) ابن سينا ، القانـون ، والعبارة نقـلاً عن جلال مـوسى ، منهج البحث عنـد العرب، ص ١٤٦ .

(٦) جلال موسى ، المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

الإسلامية استمد أصوله من مؤثرات خارجية ، ولا شك أيضاً في أن معظم الذين اشتغلوا بالطب والصيدلة في ذلك الزمان كانوا من النصارى أو السريان أو اليهود ؛ ولكن ما أن استقرت الأمور ، وجمع المسلمون زمام الأمور بأيديهم حتى أبدعوا أيّما إبداع ، وأسهموا إسهامات رائدة في تدعيم هذا العلم .

انفتح المسلمون في عصرهم الأول على مدينة جنديسابور ، وكانت مجمعاً علمياً وطبياً هاماً ، كما انفتحوا على الإسكندرية وكانت مركزاً أكاديمياً مشهوراً . ومن هنا وهناك جاءت عوامل وأسباب التطور . فكتابات الطب المشهورة كانت بالإسكندرية ، وممارسو الطب والأطباء كانوا في جنديسابور ، وبين هذين الطرفين بدأ التلاحم ، وبدأ العمل الدؤوب ، إذ حصلنا ـ كما تشير إلى ذلك الكتابات التي بين أيدينا ـ في عهد الخليفة الأموي مروان ، على أول ترجمة باللغة العربية لنص طبي وهو كناش أهرون من عمل ماسرجويه .

ولما انتقلت حاضرة الخلافة على عهد العباسيين إلى بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وقتئذ وحاضرتها ، نزح إليها أعلام الطب والعلماء من جنديسابور ، وكانت بداية اللقاء في عصر أبي جعفر المنصور ، ثم بدأت الصلات تقوى في عهد هارون الرشيد ، وتوثقت بعد ذلك في أيام المأمون، الذي استطاع أن يؤسس صرحاً علمياً مرموقاً عرفه العالم بأسره ، وهو بيت الحكمة .

ومن بين أهم العائلات التي قدمت إلى بغداد ، كانت عائلة بختيشوع في الصدارة ، ففي عهد أبي جعفر المنصور نعهد كتب التأريخ الطبي تذكر لنا أن جرجس بن بختيشوع جاء إلى بغداد ، واتصل بالخليفة . كما أن جبريل بن بختيشوع لعب دوراً هاماً في التعليم الطبي كذلك .

أضف إلى هذا أن أسرة بختيشوع لم تكن وحدها في الميدان ، وإنما شاركتها هذا العمل أسرة ماسويه ، وقد نزح أفرادها أيضاً من جنديسابور إلى بغداد ، بل لقد أصبح يوحنا بن ماسويه علماً من أعلام الطب والصيدلة وقتها ، وكان مجلسه أعمر مجلس في المدينة .

في هذه الفترة التاريخية الهامة شارك البرامكة خلفاءهم في دفع حركة التقدم العلمي ، فكانت رعاية العلماء والأطباء واجبة عليهم ، كما كانت لهم اليد الطولى في ازدهار الطب بصفة خاصة .

إنه حتى يمكن لنا أن نمسك بخيوط الموضوع بين أيدينا ، لا بد أن نتناول المسألة على مرحلتين :

المرحلة الأولى : وتتمثل في حركة الترجمة التي مرت بالتعليم الطبي ، وتلك تعتبر مرحلة زاهية بكل المقاييس ، إذ فيها وضع التراث الطبي اليوناني والسكندري بكل ما فيه تحت أنظار العلماء والأطباء في ربوع الدولة الإسلامية . وفي إطار هذه المرحلة نجد محطات هامة للوقوف ، حيث نلتقي بأعلام لهم إسهامات رائدة في هذا المجال ، ولعبوا دوراً هاماً في تأسيس حركة علمية بارزة ، تأسس فيها معظم من اشتغلوا بالطب . وربما كان من المناسب أن نشير إلى أننا سوف نشير إلى ثلاثة نماذج تمثل هذه الحركة أصدق تمثيل ، حيث نلتقي بشخصية يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن إسحق ، وقسطا بن لوقا البعلبكي .

المرحلة الثانية : وتتمثل في ذلك النشاط التأليفي والابتكاري الذي أبدع فيه الأطباء أيما إبداع ، وظهرت دراساتهم الجادة التي تضارع ، بلا أدنى شك ، دراسات بقراط وجالينوس ، وشهد الغرب بذلك . وسوف نتناول هذه المرحلة على امتداد بحثنا .

أعلام حركة الترجمة في الطب وأهم الترجمات :

كانت حركة الترجمة من أهم وأنشط الحركات الفكرية التي وجدت في العالم الإسلامي ، بل قد لا نكون مجاوزين الحقيقة إذا قلنا أن القرون من الثاني إلى الرابع الهجري (الثامن إلى العاشر الميلادي) شهدت نشاطاً في الترجمة لم تشهده الدولة الإسلامية بعد ذلك ، وربما كان من أهم أسباب هذا النشاط اندفاع الدولة الإسلامية إلى توطيد معرفة علمية ثابتة بمؤلفات وكتابات الحضارات الأخرى ، خاصة الحضارة اليونانية ، ووجود طبقة من المثقفين العرب ، خاصة النصارى والسريان ، الذين يجيدون اللغات ويمتلكون ناصيتها تماماً . ولا عجب أن وجدنا بعض هؤلاء مثل حنين بن إسحق يجيد أربع لغات مثلاً .

وحركة الترجمة التي سادت في الفترة المشار إليها ، شكلت روح التقدم العلمي حقيقة ، وكانت الدعامة الأولى لمواجهة الفكر الحضاري العلمي بفكر حضاري يفهم مقومات الحضارة المنقولة .

ومع أن تناولنا هنا لحركة الترجمة ينصب أساساً على بعض أعلامها فحسب ، ولا يمثل تناولاً تاماً للحركة كلها وعصرها الذهبي ، إلا أن ذكر بعض الأعلام قد يمثل أهمية خاصة في فهم الدور الحقيقي الذي لعبته الكتابات المنقولة إلى العالم الإسلامي عبر حركة الترجمة .

[١] يوحنا بن ماسويه :

تجمع الكتابات التي بين أيدينا ، والمعروفة قديماً ،عن يوحنا بن ماسويه أنه توفي عام ٢٤٣ م . وهو نصراني سرياني ،ذكر ابن النديم في كتاب الفهرست : «وكان فاضلاً ، طبيباً مقدماً عند الملوك ، عالماً مصنفاً ، خدم المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل»[٧] .

---

(٧) ابن النديم ، الفهرست، ص ٣٥٤.

لكن ابن القفطي يذكر على خلاف ذلك أن «يوحنا بن ماسويه كان نصرانياً وسريانياً في أيام هارون الرشيد ، وولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة لما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون وسبوا سبيها الرشيد والأمين والمأمون ومن بعدهم من الخلفاء إلى أيام المتوكل»[٨] .

ومن الواضح أيضاً أن ابن أصيبعة يذكر نفس المعلومة تقريباً ، إذ يقول في «العيون» : وقال سليمان بن حسان : كان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب سريانياً ، قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجده بأنقره وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ، ووضعه أميناً على الترجمة»[٩] .

والخطأ واضح في كلام ابن القفطي وابن أبي أصيبعة ، لقد أخذا عن مصدر واحد وهو ابن جلجل ، الذي كان أول من أخطأ حول هذه المعلومة التاريخية . إن الذي طب للرشيد هو ماسويه (الأب) أبو يوحنا ، وليس يوحنا الذي نتحدث عنه ، وقد عاش في أواخر القرن الثامن ومطلع القرن التاسع ، وكان يعمل صيدلانياً في بيمارستان جندسابور. هذا عن الخطأ الأول . كذلك فإن الواقعة التاريخية الخاصة بفتح عمورية وأنقرة كانت في عصر المعتصم بالله ، ولم تكن على أيام الرشيد .

كان مجلس يوحنا بن ماسويه ، على ما يقول ابن القفطي[١٠] وابن أبي أصيبعة[١١] أعمر مجلس بمدينة السلام لمتطبب أو متكلم أو متفلسف ، لأنه كان يجتمع فيه كل صنف من أصناف أهل الأدب . وقد

---

(٨) ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .
(٩) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٢٤٦ .
(١٠) ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ٢٤٩ وما بعدها .
(١١) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٢٤٧ .

ارتبط هذا الرجل بصداقة قوية بالخلفاء . وتتلمذ على يـوحنا كثيـرون من أشهرهم حنين بن إسحاق الذي انفض عن مجلسه بعد وقت قصير .

ومن أهم كتاباته على ما يذكر ابن النديم[١٢] وابن القفطي[١٣] :

- كتاب الكمال والتمام .
- كتاب الكامل .
- كتاب الحمام .
- كتاب دفع ضرر الأغذية .
- كتاب الإسهال .
- كتاب علاج الصداع .
- كتاب السدر والدواء .
- كتاب لم امتنع الأطباء عن علاج الحوامل في بعض شهور حملهن .
- كتاب محنة الطبيب .
- كتاب مجسة العروق .
- كتاب الصوت والبحة .
- كتاب ماء الشعيـر.
- كتاب الفصد والحجامة .
- كتاب المرة السوداء .
- كتاب صلاح النساء اللواتي لا يحبلن .
- كتاب السواك والسنونات .
- كتاب إصلاح الأدوية المسهلة .
- كتاب الحميات .
- كتاب القولنج .

---

(١٢) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٥٤.

(١٣) ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ٢٤٩.

لكن بـروكلمان[١٤] ذكـر في تـاريـخ الأدب العـربي الكتب التي تم العثور عليها فعلاً بأرقامها في المكتبات العامة في العالم وهي :

١ ـ نـوادر الطب : ألفـه لحنين بن إسحـاق . ليـدن ٣٠٢ ، جـاريت ٢١٥٤ : ٢ . جـوتنجن ٩٩ . الاسكوريـال أول ٨٨٨ = مدريـد أول ٦٠١ : ١٠ .

ترجمات لاتينية :

— Aphorismi Johannis Damasceni, Bononiae, 1489.

— J.D. Aphorismi, im App. Zu Aph. Maimunidis, Basil. 528/42 .

— Mediolani, 1481 .

ومـع كتـاب المنصـوري في الطب (Liber ad Almansorem)للرازي : البندقية ١٤٨٤ و١٤٩٢ و ١٥٠٠ ، ليدن ١٥٠٥ ، أنظر :

Steinschneider, Europ. Uebers. a.d. Ar. I , 39.

وترجم العبرية (شتاينشنايدر ٤٦٤) .

ونشره بولس سباط بالقاهرة سنة ١٩٣٤ :

Les maximes médicaux de Yohanna b.M. Publ. par P. Sbath, Le Caire, 1934.

٢ ـ كتاب الحميات : من مخطوطات أحمـد تيمور بـاشا (مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٣/٣٦١) .

ترجم إلى العبرية عن ترجمة لاتينية (شتاينشنايدر ٤٦٤) :

De Febribus aus einer lat. Uebers. mit Cmt. des Petrus Hispanus, hebr. Steinschn. 464.

---

(١٤) بروكلمـان، تاريخ الأدب العربي، ج ٤ ، ص ٢٦٥-٢٦٦ .

٣ ـ Perfectum de medicina : من المخطوطات العبرية في باريس ٣٧٩ و ٤٠٨ .

٤ ـ كتاب جواهر الطيِّب المفردة (أو مختصر في معرفة أجناس الطيب وذكر معادن الخ) :

ليبزج أوْل ٧٦٨ . جاريت ٢١٥٤ : ٢ . ونشره بولس سباط القاهرة :

Traité sur les substances simples aromatiques par J.b.M. publié par P. Sbath, Bull. de l'inst. d'Egypte, XIX, 1936/7.

٥ ـ كتاب ماء الشعير : الجزائر أول ١٧٤٦ : ٢ .

٦ ـ كتاب إصلاح الأدوية المسهلة : مخطوط في جنوا :

Bolletino Italiano 410.

كتالوج ستراسبورج ، ص ٤ .

ترجم إلى العبرية :

Steinschneider, Die hebr. Uebers d. MA II 718, 465

٧ ـ كتاب خواص الأغذية والبقول والفواكه والألبان وأعضاء الحيوان والأبازير والأفاوية : مدريد أول ٦٠١ : ٨ (منسوب في رسم التوقيع إلى الرازي) .

٨ ـ كتاب الأزمنة (الأزمان : أسعد ١٩٣٣ : ١٨٠ ب ـ ٨٦ أ) :

بروسه : حسين چلبي حياة ا (ريتر) . الإسكندرية : حكمة ١٦ . الجامعة المصرية ٣٣٢٨ : كراوس Kraus ، وليس في الكتالوج . سباط ٧٤ ، ٢ ، ٧٩٩ .

نشره سباط في مجلة المجمع العلمي المصري ، المجلد ١٥ ، ص ٢٣٥-٢٥٧ .

٩ ـ كتاب المُشَجَّر : عرض للطب كله في هيئة جداول : بنكيپور ٤/١ .

رامبور أول ٤٩٣ : ٢٠٤ (تذكرةالنوادر للنَّدْوى ١٨٣) .

١٠ ـ كتاب العين المعروف بدغل العين أو معرفة العين وطبقاتها :
أحمد تيمور باشا ، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٣٣٨/٣ ، أو معرفة محنة الكحالين :
Leningrad VII Bibl. Gregoire IV (Christ. vost. VII, 20, 425).
أنظر مايرهوف وبروفر C. Pruefer في مجلة Der Islam ٤/ ٢١٧-٢٥٦ .

هذا وقد زاول يوحنا بن ماسويه التشريح ، وسوف نذكر هذا في فقرة لاحقة .

[٢] حنين بن إسحق :

وهو حنين بن إسحق العبادي ، ويكنى أبا زيد (١٩٤-٢٦٤ هـ) من نصارى الحيرة ولد لأب نسطوري يعمل بصناعة العقاقير والصيدلانيات. التحق بمجلس يوحنا بن ماسويه من أشهر مجالس التعليم ببغداد ، ثم انفض عنه لكثرة سؤاله وإلحاحه ، وطاف البلاد ، وتعلم اللغات اليونانية والفارسية بالإضافة إلى إتقانه العربية والسريانية ، وعاد من جولاته ومعه كنوز علمية هامة ، عكف على ترجمتها ، وتولى رياسة بيت الحكمة ، فأخرج من الكتب الكثير . وسوف لا نفصل جوانب حياته أو مدرسته في هذا البحث ، إذا أننا أفردنا لحنين بحثاً خاصاً ، يتناول تأريخاً لحياته ، ومؤلفاته ومترجماته وأهميته ومدرسته .

لكن نكتفي هنا بذكر ثبت سريع لأهم الكتابات الطبية التي ترجمها حنين بن إسحق[١٥] من اليونانية أو السريانية إلى العربية ، وهي لأبقراط أوجالينوس .

---

(١٥) راجع في ذلك كتابنا : حنين بن اسحق : العصر الذهبي للترجمة، ص ٧٩ - ١١٨.

١ ـ كتاب الفرق ، وهو لجالينوس .
٢ ـ كتاب الصناعة الصغيرة .
٣ ـ كتاب النبض الصغير .
٤ ـ كتاب جالينوس إلى أغلوقن .
٥ ـ كتاب في العظام .
٦ ـ كتاب في العضل .
٧ ـ كتاب في العصب .
٨ ـ كتاب في العروق .
٩ ـ كتاب الإسطقسات .
١٠ ـ كتاب المزاج .
١١ ـ كتاب قوى الطبيعة .
١٢ ـ كتاب العلل والأعراض .
١٣ ـ كتاب تعرف على علل الأعضاء الباطنة .
١٤ ـ كتاب النبض الكبير .
١٥ ـ كتاب أصناف الحميات .
١٦ ـ كتاب البحران.
١٧ ـ كتاب أيام البحران.
١٨ ـ كتاب حيلة البرء .
١٩ ـ كتاب علاج التشريح .
٢٠ ـ كتاب فيما وقع من الاختلاف بين القدماء في التشريح .
٢١ ـ كتاب تشريح الأموات .
٢٢ ـ كتاب في علم أبقراط بالتشريح .
٢٣ ـ كتاب في آراء أرسطراطس بالتشريح .
٢٤ ـ كتاب في تشريح الرحم .
٢٥ ـ كتاب في حركة الصدر والرئة .

٢٦ ـ كتاب في الصوت .
٢٧ ـ في حركة العضل .
٢٨ ـ مقالة في الحاجة إلى النبض .
٢٩ ـ مقالة في الحاجة إلى التنفس .
٣٠ ـ مقالة في العروق الضوارب .
٣١ ـ كتاب في قوى الأدوية المسهلة .
٣٢ ـ كتاب في الحركة المعتاصة .
٣٣ ـ كتاب في آلة الشم .
٣٤ ـ كتاب منافع الأعضاء .
٣٥ ـ مقالة في أفضل هيئات البدن .
٣٦ ـ مقالة في خصب البدن .
٣٧ ـ مقالة في سوء المزاج المختلف .
٣٨ ـ كتاب الأدوية المفردة .
٣٩ ـ مقالة في دلائل علل العين .
٤٠ ـ مقالة في أوصاف الأمراض .
٤١ ـ كتاب الامتلاء .
٤٢ ـ مقالة في الأورام .
٤٣ ـ مقالة في الأسباب البادية .
٤٤ ـ مقالة في الأسباب المتصلة بالأمراض .
٤٥ ـ مقالة في الرعشة والنافض والاختلاج والتشنج .
٤٧ ـ مقالة في أجزاء الطب .
٤٨ ـ كتاب المني .
٤٩ ـ مقالة في تولد الجنين .
٥٠ ـ مقالة في المرة السوداء .
٥١ ـ كتاب أدوار الحميات وتراكيبها .

٥٢ ـ اختصار كتابه المعروف بالنبض الكبير .
٥٣ ـ كتاب في النبض .
٥٤ ـ كتاب في رداءة التنفس .
٥٥ ـ كتاب نوادر تقدمه المعرفة .
٥٦ ـ اختصار كتابه في حيلة البرء .
٥٧ ـ كتاب المفيد .
٥٨ ـ كتاب البول .
٥٩ ـ مقالة في صفات لصبي يصرع .
٦٠ ـ كتاب قوى الأغذية .
٦١ ـ كتاب التدبير الملطف .
٦٢ ـ اختصار الكتاب الذي في التدبير الملطف .
٦٣ ـ كتاب الكيموس الجيد والرديء .
٦٤ ـ كتاب في أفكار أرسطراطس في مداواة الأمراض .
٦٥ ـ كتاب تدبير الأمراض الحادة على رأي أبقراط .
٦٦ ـ كتاب الأدوية التي يسهل وجودها وهي التي تسمى الموجودة في كل مكان .
٦٧ ـ كتاب الأدوية المقابلة للأدواء .
٦٨ ـ كتاب الترياق إلى مغيليانوس .
٦٩ ـ كتاب الترياق إلى قيصر .
٧٠ ـ كتاب الحيلة لحفظ الصحة .
٧١ ـ تفسير كتاب عهد أبقراط .
٧٢ ـ تفسير كتاب الفصول لأبقراط .
٧٣ ـ تفسير كتاب الكسر لأبقراط .
٧٤ ـ تفسير كتاب رد الخلع لأبقراط .
٧٥ ـ تفسير كتاب تقدمه المعرفة لأبقراط .

٧٦ ـ تفسير كتاب تدبير الأمراض الحادة لأبقراط .
٧٧ ـ تفسير كتاب القروح لأبقراط .
٧٨ ـ تفسير كتاب جراحات الرأس لأبقراط .
٧٩ ـ تفسير كتاب أبيديميا لأبقراط .
٨٠ ـ تفسير كتاب الأخلاط لأبقراط .
٨١ ـ تفسير كتاب تقدمة الإنذار لأبقراط .
٨٢ ـ تفسير كتاب قاطيطريون لأبقراط .
٨٣ ـ تفسيركتاب الهواء والماء والمساكن لأبقراط .
٨٤ ـ تفسير كتاب الغذاء لأبقراط .
٨٥ ـ تفسير كتاب طبيعة الجنين لأبقراط .
٨٦ ـ تفسير كتاب طبيعة الإنسان لأبقراط .
٨٧ ـ كتاب في أن رأي أبقراط من كتاب طبيعة الإنسان .
٨٨ ـ كتاب في أن الطبيب الفاضل يجب أن يكون فيلسوفاً .
٨٩ ـ كتاب في الحث على تعلم الطب .
٩٠ ـ كتاب في جمل التجربة .
٩١ ـ كتاب في محنة أفضل الأطباء .
٩٢ ـ كتاب في الأسماء الطبية .
٩٣ ـ كتاب في أن قوى النفس تابعة لمزاج البدن .

هذه الكتابات التي أشرنا إليها ، والتي ترجمها حنين ، توضح لنا بصورة كافية ، أن الأعمال الهامة لأطباء اليونان ، بقراط وجالينوس ، نقلت إلى العالم الإسلامي ، العالم الجديد ، ووضعت تحت أنظار العلماء يطلعون عليها ويتدارسون ما فيها ، وبعد أن درست جيداً ، بدأت مرحلة جديدة من الاعتماد على الذات ، وإفراز أصول علمية جديدة تتلاءم مع واقع التطورات العلمية .

[٣] قسطا بن لوقا البعلبكي (٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م).

يذكر ابن النديم في «الفهرست»[١٦] عن قسطا بن لوقا البعلبكي ومؤلفاته، النص التالي:

« هو قسطا بن لوقا البعلبكي . وقد كان يجب أن يقدم على حنين ، لفضله ونبله وتقدمه في صناعة الطب ، ولكن بعض الأخوان سئل أن يقدم حنين عليه ، وكلا الرجلين فاضل . وقد ترجم قسطا قطعة من الكتب القديمة ، وكان بارعاً في علوم كثيرة ، منها الطب والفلسفة والهندسة والاعداد والموسيقى ، لا يطعن عليه ، فصيحاً باللغة اليونانية ، جيد العبارة بالعربية ، وتوفي بأرمينية عند بعض ملوكها . ومن ثم أجاب أبا عيسى ابن المنجم عن رسالته في نبوة محمد عليه السلام . وثم عمل الفردوس في التاريخ . وله من الكتب سوى ما نقل وفسر وشرح ، كتاب الدم . كتاب البلغم . كتاب الصفراء . كتاب السوداء . كتاب المرايا المحرقة . كتاب السهر . كتاب في الأوزان والمكاييل . كتاب السياسة ، ثلاث مقالات. كتاب علة موت الفجأة . كتاب الأعداء . كتاب معرفة الخدر وعلاجه . كتاب أيام البحران . كتاب علل الشعر . كتاب الفصل بين النفس والروح . كتاب الباه . كتاب العلة في أسوداد الخيش وتغيره من الرش . (كتاب المروحات) كتاب في المروحة وأسباب الريح في ما يشترك فيه الأخلاط الأربعة . كتاب القرسطون . كتاب في الاستدلال بالنظر إلى أصناف البول. كتاب المدخل إلى المنطق . كتاب العمل بالكرة النجومية . كتاب نوادر اليونانيين نقله . كتاب شرح مذاهب اليونانيين . كتاب المدخل إلى علم الهندسة . كتاب

---

(١٦) ابن النديم ، الفهرست، ص ٣٥٣.

رسالته في الخضاب . كتاب رسالته في قوانين الأغذية . كتاب شكوك كتاب أقليدس . كتاب الفصد ، ثمانية عشر بابا . كتاب المدخل إلى علم النجوم . كتاب تفسيره لثلاث مقالات ونصف من كتاب ذيوفنطس في المسائل العددية » .

أما ابن القفطي قد ذكر في «تاريخ الحكماء»[١٧] أنه «فيلسوف شامي نصراني في الملة الإسلامية ثم في أيام بني العباس دخل إلى بلاد الروم وحصل من تصانيفهم الكثير وعاد إلى الشام واستدعى إلى العراق ليترجم كتباً ويستخرجها من لسان يونان إلى لسان العرب. . . . » .

وقد زودنا بروكلمان[١٨] بثبت لأهم كتاباته الطبية التي تم العثور عليها في مكتبات العالم المختلفة وهي :

١ ـ رسالة في السهر : عن أسباب الأرق وعلاجه ، ألفه لأبي الغطريف : برلين ٦٣٥٧ .

٢ ـ في تدبير الأبدان في السفر للسلامة من المرض والخطر ، ألفه لأبي محمد الحسن ابن مخدر : المتحف البريطاني أول ٤٢٤ : ٢ ، آصفية ٢ / ٩٣٤ : ٢٠١ .

٣ ـ كتاب في البلغم وعلله : المقالة الأولى من كتاب من ست مقالات ، ألفه لأبي الغطريف ميونيخ ٨٠٥ .

٤ ـ كتاب في علل الشعير : ألفه للحسن بن مخلد : المتحف البريطاني أول ٤٣٤ : ٣ .

---

(١٧) ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ١٧٣ . وقد ذكرت ترجمته في كثير من كتب التراث مثل كتابات ابن أبي أصيبعة ص ٢٤٤ ، وابن جلجل ص ٦٧ ، وابن العبري ص ١٤٩ ، وابن صاعد الأندلسي ، ق ٢٧ .

(١٨) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج ٤ ، ص ٩٧ ـ ١٠٣ .

٥ ـ كتاب في حفظ الصحة وإزالة المرض : بنكيپور ٤ / ٧ (ويشك بروكلمان في نسبته إليه) .

٦ ـ في الأدوية المسهلة والعلاج بالإسهال : آيا صوفيات ٣٧٢٤ ، الأوراق ٧٦ أ ـ ٩٦ أ .

٧ ـ في التحرز من الزكام والنزلات التي ترد في الشتاء : آيا صوفيا ٣٧٢٤ ، الأوراق ٩٦ أ ـ ١٠٠ ب .

٨ ـ كتاب في العياء : آيا صوفيا ٣٧٢٤ ، الأوراق ١٠١ أ ـ ١٠٥ ب .

٩ ـ في علة طول العمر وقصره : يتبع فيه أرسطو طاليس : آيا صوفيا ، ٣٧٢٤ ، الأوراق ١٠٥ ب ـ ١١١ ب .

١٠ ـ في الضرس : آيا صوفيا ٣٧٢٤ ، الأوراق ١١١ ب ـ ١٢٣ أ .

١١ ـ في ذكر اصلاح الأدوية المسهلة ونفي ضرورة ومقدار الشربة منها والضروب : آيا صوفيا ٣٧٢٤ ، الأوراق ١٢٣ أ ـ ١٢٧ ب .

١٢ ـ في صفة الجدر وأنواعه أسبابه وعلاجه على رأي جالينوس وبقراط : آيا صوفيا ٣٧٢٤ ، الأوراق ٢٢٢ ب ـ ٢٣٦ .ب .

١٣ ـ ومن ترجماته فهرست مصنفات جالينوس : الأسكوريال أول ٧٩٥ ، آيا صوفيا ٣٥٠٩ .

من هذا الاستعراض الذي قدمنا فيه ثلاثة نماذج هامة لرواد التراجمة العرب ، والأعمال التي ترجموها ، يتضح لنا أن معظم رواد هذه الحركة كانوا على دراية تامة بالأعمال التي نقلوها ، وكانت اهتماماتهم تقع في هذا النطاق ، كما كانت الدولة ترعاهم ، وتبذل لهم العطاء ، حتى يمكنهم أن يقوموا بواجباتهم بصورة طيبة .

والواضح أن هؤلاء كانوا يمارسون الطب إلى جانب اشتغالهم بالترجمة . وممارسة الطب قد اتسع نطاقها فيما بعد بحيث ظهرت ملامح

المهنـة على الأطبـاء . فمن يمـارس الـطب وعــلاج المـرضى ينبغي أن يجمع بين الصفة العلمية الأكاديمية ، أي يكون متمرساً في العلم متبحراً فيه ، ملماً بتراث السابقين ، وفي نفس الوقت ينبغي أن تكون ممـارساتـه الأكلينيكية على أروع ما يكـون . ولهذا نجـد الأطباء قـد مارسـوا مهنتهم في البيمـارستانـات التي انتشرت في ربـوع العالم الإسـلامي ، على مـا سنرى في الفصل الثاني .

الفصل الثاني

البيمارستانات في العالم الاسلامي



البيمارستانات في العالم الإسلامي

إن من يتعلم الطب ويدرسه ويمارسه كمهنة لابد له من العمل في المستشفيات حتى يتدرب ويتمرس على مهنة الطب ، ويستطيع أن يكتسب الخبرة من الحالات التي يقابلها تحت إشراف أساتذة علماء ، يقول جروينباوم عن ضرورة زيارة طلاب الطب للمستشفيات : « أنه ينبغي له (أي طالب الطب) على الدوام أن يزور البيمارستانات ودور العلاج ، وأنه يوجه انتباهاً لا يفتر إلى أحوال من فيها وظروفهم ، وهو في صحبة أعظم أساتذة الطب ذكاء ، وأن يكثر من الاستفسار عن حالة المرض والأعراض الظاهرة عليهم ذاكراً ما قرأه عن تلك التغيرات ، وعما تدل عليه من خير أو شر . فإن هو عقل ذلك بلغ رتبة عالية في هذه الصناعة»[١٩] . فكأن التعليم الطبي وقتئذٍ كانت له أسس وأصول، وكان يمارس في البيمارستانات . وحتى نقف على أصول عملية التعليم الطبي التي سادت في ربوع العالم الإسلامي ، نبحث أولاً البيمارستانات في أصلها ونشأتها ، لنعرف أهميتها بالنسبة لتعليم الطب بصفة عامة .

يقول ابن أبي اصيبعة في تتبع تاريخي لأصل الكلمة « فأما معالجة أبقراط ومداواته للأمراض فإنه أبداً كانت له العناية البالغة في نفع

(١٩) جرونباوم ، حضارة الإسلام ، ص ٤٢٤ .

المرضى وفي مداواتهم، ويقال إنه أول من جدد البيمارستان واخترعه وأوجده ، وذلك أنه عمل بالقرب من داره في موضع من بستان كان له ، موضعاً مفرداً للمرضى وجعل فيه خدماً يقومون بمداواتهم ، وسماه أخسندوكين ، أي مجمع المرضى . وكذلك أيضاً تقع لفظة البيمارستان وهو فارسي . وذلك أن « البيمار » بالفارسي هو المرض ، و« ستان » هو الموضع ، أي موضع المرض »[٢٠] . هذا هو النص الذي عثرنا عليه في « عيون الأنباء » لابن أبي أصيبعة حول النشأة التاريخية للبيمارستان .

لكن ماكس مايرهوف[٢١] يذكر في حركة تأريخه للطب العربي في مواضع شتى من كتاباته أن أول مستشفى أنشىء في العالم الإسلامي هو ذلك الذي تم تأسيسه في بغداد بأمر هارون الرشيد ، ثم توالت بعد ذلك إقامة المستشفيات في كل مكان . فهل يمثل رأي مايرهوف هذا الحقيقة على الاطلاق ، أم أن هذا الرأي فيه بعض مغالطات واضحة لابد من التوقف للتعرف على مواضعها، ومعرفة ما يجمع عليه المؤرخون حول هذه النقطة بالذات .

كان ابن قتيبة الدينوري مهتماً في كتابه « الإمامة والسياسة »[٢٢] بالقاء الضوء على بعض المسائل الهامة التي تخص تاريخ الإسلام . فذكر أن أول بيمارستان أنشىء لجيش المسلمين هو ما جاء عن عبد الله بن الزبير عندما حوصر في مكة من أنه ضرب فسطاطاً في ناحية من المسجد ، فإذا جرح أحد من الصحابة أدخله إلى الفسطاط ليعالج ويعتنى به أشد الأعتناء ، ويسهر على راحته من هم أكفاء في هذا

(٢٠) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٤٥ .
(٢١) ماكس مايرهوف ، العلم والطب . ص ٤٦٥ .
(٢٢) ابن قتيبة الدينوري ، الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٢ .

العمل . وبهذا نشأ أول نوع من أنواع البيمارستانات في الإسلام ، وهو البيمارستان العربي .

كذلك وجدنا أن أدلة أخرى لدى « ابن الأثير » في الكامل[٢٣] والمقريزي في الخطط المقريزية[٢٤] تفيد أن الوليد بن عبد الملك كان أول من أسس بيمارستاناً بالمعنى الصحيح في الإسلام عام ٨٨ هـ. ويبدو أن « نوشيراوي »[٢٥] في كتابه الحديث عن «البيمارستانات» الإسلامية في العصور الوسطى » أخذ بهذه النظرة ، وذكر أن أول بيمارستان بنى في الإسلام كان في دمشق ، ومؤسسة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥ ميلادي)، وتاريخ انشائه ٨٦ هجرية (٧٠٦ - ٧٠٧ ميلادية) وكان الهدف من إنشائه معالجة المرضى والعناية بالمصابين بأمراض مزمنة كالجذام والعمى . . . الخ ، وكان المصابون بالجذام يحبسون وتجري عليهم الأرزاق والمعالجة مجاناً ، وكان في البيمارستان أكثر من طبيب . ومن الواضح أن نوشيراوي يأخذ بما جاء في الكامل لابن الأثير حول هذه النقطة بالذات . وهناك آخر له أهميته واعتباره في هذا الصدد ، إذ إن أحمد بك عيسى[٢٦] كان أول من كتب بوضوح حول نشأة البيمارستانات وتاريخها في الإسلام ، وقد ذكر أن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم أول من أمر بالبيمارستان الحربي المتنقل . ومن الطبيعي أن يكون لهذا الرأي الأخير أهميته واعتباره، فقد خاض المسلمون غزوات كثيرة ، كان فيها الكر والفر ، ومع هذا وذاك كان يجرح أو يقتل رجل هنا أو هناك ، ومن الطبيعي أن يكون هناك من

---

(٢٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٢١٩ .

(٢٤) المقريزي ،المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٤٠٥ .

(٢٥) نوشيراوي ، البيمارستانات الإسلامية، ص ٢٠٢ .

(٢٦) أحمد عيسى ، البيمارستانات في الإسلام، ص ٩ .

يسهر على علاج وأمر هؤلاء في مكان ما ، حتى تتوفر للمقاتلين الرعاية الكاملة .

ويبدو أن هذا الرأي الأخير يتفق مع ما ورد عند ابن قتيبة الدينوري .

نظام البيمارستانات

إن من يهتم بإنشاء مؤسسة مهما كانت لابد وأن يضع لها نظاماً إدارياً وفنياً تسير وفقاً له ، وبطبيعة الحال لم يغب عن بال الأطباء في العالم الإسلامي أن يتبعوا نظاماً دقيقاً داخل المستشفيات ، بحيث يقوم على تدرج أكاديمي يحقق فائدتين معاً : الأولى فائدة المرضى بأن يتم التعامل معهم وعلاجهم وفق أحدث أصول وقواعد العلاج الطبي المعمول بها . والثانية أن يتم حصول الفائدة لتعلم الطب، أو الطبيب الحديث الذي تناط به المهنة ، وتكون من مهمته علاج المرضى بصورة ناجحة . ولهذا فإن البيمارستانات في العالم الإسلامي اتبعت فيها كل الأصول الفنية التي تحقق هذين الغرضين معاً .

ولقد ذكر ابن جبير[٢٧] ما شاهده في المستشفيات من تقسيم للعمل ، كما ذكر أحمد بك عيسى[٢٨] في كتابه عن « البيمارستانات في الإسلام » ، وأمين أسعد خيرالله[٢٩] في مؤلفه عن « الطب العربي » ، وكذلك « نوشيراوي »[٣٠] في كتابه عن « البيمارستانات

---

(٢٧) ابن جبير ، رحلة ابن جبير ، ص ١٨٦.
(٢٨) أحمد عيسى ، المرجع السابق ، ص ٢٠- ص ٤٠ .
(٢٩) أمين أسعد خيرالله ، الطب العربي ، ص ٦٣ - ٦٨.
(٣٠) نوشيراوي ، المرجع السابق، ص ٢٠١.

الإسلامية في العصور الوسطى » التنظيم الإداري والفني والتعليمي أيضاً الذي نجده في مستشفيات ، أو بيمارستانات ذلك العصر .

أما عن الاختبار الفني للبيمارستانات ، فكثيراً ما كان يختار له أفضل المواقع وأحسنها من حيث الشروط الصحية ، فكانوا يفضلون بناء البيمارستانات على الروابي أو بجوار الأنهار . فهذا هو البيمارستان العضدي الذي بناه عضد الدولة بن بويه[٣١] في بغداد على دجلة ، يدخله ماء النهر حيث يتخلل فناءه وقاعاته ويعود مرة أخرى ليصب في دجلة .

وأما عن تنظيم البيمارستان فكان من الطبيعي أن يفطن الأطباء إلى ضرورة الفصل بين الرجال والنساء ، فوضعوا في اعتبارهم في معظم الحالات أن يشتمل البيمارستان على قسمين : أحدهما للرجال والآخر للنساء . وكل قسم يعتبر بيمارستاناً قائماً بذاته ، إذ كان القسم يحتوي على قاعات واسعة للمرضى .

وأما عن التنظيم الإداري للبيمارستان ، فكان في كل قسم من الأقسام قاعات للأمراض بحسب أصنافها ، وكان لكل قاعة طبيب أو أكثر ، ويرأس الأطباء في هذا القسم رئيس للأطباء . وأما عن القاعات فقد خصصت قاعة للأمراض الداخلية ، وأخرى للمجبرين ، وقاعة للكحالين ، وقاعة للولادة ، وكذلك لكل أصناف الأمراض الأخرى بما فيها الأمراض المعدية[٣٢] .

هذا ونجد أن ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء»[٣٣] ، قد وصف قاعات الأمراض الداخلية التي كثيراً ما كان بها

(٣١) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء ، ص ٤١٥ .
(٣٢) ابن أبي أصيبعة ، المرجع السابق ، ص ٧٣٢ .
(٣٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ، ص ٧٣٢ ، ص ٧٣٣ .

القسم للمحمومين أي المصابين بالحمى ، وآخر للمحرورين الذين بهم المرض المسمى مانيا ، أو ما يعرف باسم الجنون السبعي . وكانت أقسام البيمارستان مجهزة بكل الأدوات والآلات اللازمة للطبيب .

ويروى ابن أبي اصيبعة[٣٤] كيف أن عضد الدولة لما أراد بناء البيمارستان العضدي على طرف الجسر الغربي من الجانب الغربي من بغداد ، وفد إليه مائة طبيب أجرى لهم امتحانا ، واختير من بينهم أربعة وعشرين طبيباً ليعملوا في البيمارستان .

ورئيس الأطباء جميعاً في المستشفى يسمى الساعور . ويلاحظ أن الجهاز الإداري والطبي في المستشفى كان يقوم على استخدام الغلمان الذين يعملون كموظفين أو مساعدين صحيين ، أو مضمدين ، ومنهم أيضاً من يعمل بمهنة نظافة البيمارستان والسهر على راحة المرضى وقت الحاجة .

والبيمارستان من حيث هذا الترتيب أو النظام كان يؤدي وظيفته الطبية من حيث التشخيص ، وتحديد المرض ، ووصف العلاج ، لكن الذين أسسوا نظام البيمارستانات في العالم الإسلامي فطنوا إلى ضرورة أن تلحق صيدلية بالبيمارستان لصرف الدواء ، الذي كان يتعين صرفه للمريض بموجب وصفة طبية من الطبيب المعالج . ويطلق على الصيدلية اسم الشرابخانة[٣٥] .

وكما هو حادث الآن فإنه يتم التفتيش على البيمارستان ، وهذا الأمر يهتم به صاحب الحسبة الذي يخوله الوزير أو الخليفة الحق في دخول المستشفى ، والوقوف على حالة المرضى ومدى الاهتمام بهم ، وما

---

(٣٤) المرجع السابق ، ص ١٤٦ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ٤١٥ .

يقـدم لهم من طعام ، وهـل يقوم الغلمـان على راحتهم، أم يقصـرون ؟ وهـل يؤدي الطبيب واجبـه الطبي تمـاماً أم يقصـر دون ذلـك ؟ وكـذلـك الصيدلي . وهذا النظام كان يكفـل للبيمارستـان البقاء والاستمرار بصورة جادة يعمل فنياً وعلمياً وإدارياً بكفاءة عالية .

والجـدير بـالذكـر أنه كـان لكل مـريض بطاقـة يدون بهـا الـطبيب ملاحظاته عند معالجته للمـريض ، كما كـان لدى الـطبيب سجل خـاص يـدون به المـلاحظات عن الأمـراض التي كان يعـالجها . وكـان الطبيب يضع تجاربه واختباراته بناء على هذه الملاحظات . وإذا ما استشكـل أمر من الأمور على أحد الأطباء وقت تشخيصه إياه ، كان يلجأ لرئيس القسم الذي يعمل فيه ، أو رئيس الأطباء ، أو في كثير من الاحيان كـان الأطباء يجتمعون ويتشاورون في أمر مريض . ولا شك أن هذا الحـوار والتشاور يعتبر مؤتمراً علمياً مصغراً بين الأطباء ، وهو معمول به الآن .

ولنـا أيضاً أن نـلاحظ أن ما كتبـه مؤرخو الـطب العـربي قـد أفـرد صفحات طويلة ، وسطور أطول عـن الشخصيـات الطبية التي كان يـدور حـولهـا الحــوار والنقـاش لمنــاقشـة نــظام العمــل في المستشفى ، أو « البيمـارستان » ، بين الأطبـاء . لقد كـانت هناك نـوبات ، أو مـا يسمى نوبتجيات بين الأطباء ، منهم من يعمل ليـلاً أو نهاراً ، أو من يعمـل فترة من الوقت نهاراً وفترة أخرى ليلاً ، بحيث يسهرون على راحـة المرضى ، وفي نفس الـوقت يتحقق لهم قسط من الراحـة يمكنهم من متـابعـة سيـر العمل بالبيمارستان وتفقد نظام العلاج والرعاية الطبية للمرضى .

وقد ذكر المقريزي في خططه[٣٦] أن المرضى كـانت تقيد أسمـاؤهم عند دخـولهم البيمارستـان، وتنـزع عنهم ثيابهم ، وتؤخـذ نقودهم وتـودع

---

(٣٦) المقريزي ، المرجع السابق ، ج ٢ ص ٤٠٥ .

أمانة عند أمين البيمارستان ، ويتسلمون ثياباً نظيفة بدل التي خلعت عنهم ، ويتناولون الأدوية والأغذية بإشراف الأطباء مجاناً حتى يبرأ المريض .

أما ابن الأخوة فقد وصف لنا في كتاب الحسبة دخول المريض إلى العيادة الخارجية للطبيب إذ يقول في نص هام له « وينبغي إذا دخل الطبيب على المريض سأله عن سبب مرضه ، وعن ما يجد من الألم ، ثم يرتب له قانوناً من الأشربة وغيره من العقاقير ، ثم يكتب نسخة لأولياء المريض بشهادة من حضر معه عند المريض . وإذا كان من الغد حضر ونظر إلى دائه ، ونظر إلى قارورته وسأل المريض : هي تناقص به المريض أم لا ؟ ثم يرتب له ما ينبغي على حسب مقتضى الحال . ويكتب له نسخة ويسلمها لأهله ، وفي اليوم الثالث كذلك ، وفي اليوم الرابع كذلك ، وهكذا إلى أن يبرأ المريض أو يموت . فإن برىء من مرضه أخذ الطبيب أجرته وكرامته ، وإن مات حضر أولياؤه عند الحكيم المشهود ، وعرضوا عليه النسخ التي كتبها لهم الطبيب ، فإن رآها على مقتضى الحكمة وصناعة الطب من غير تفريط ولا تقصير من الطبيب ، قال : هذا قضي بفروغ أجله ، وإن رأى الأمر بخلاف ذلك ، قال لهم : خذوا دية صاحبكم من الطبيب ، فإنه هو الذي قتله بسوء صناعته وتفريطه ، فكانوا يحتاطون على هذه الصورة الشريفة إلى هذا الحد حتى لا يتعاطى الطب من ليس من أهله »[٣٧] .

اختلاف البيمارستانات باختلاف أغراضها .

فطن المسلمون في فجر الدولة الإسلامية إلى الصور المختلفة ، والأغراض المتعددة التي ينبغي أن تكون عليها البيمارستانات . ومن

---

(٣٧) ابن الأخوة ، معالم القربى في طلب الحسبة ، ص ١٦٧ .

الطبيعي أن ينظر إلى هذه النقطة بصورة جادة ودقيقة ، نظراً لما تمثله من أهمية بالنسبة للمريض والطبيب ، ودرجة الرعاية المطلوبة للمريض. والذي لا شك فيه أن البيمارستان الذي ينشأ ليخدم المقاتلين في ميدان الحرب أثناء كرهم وفرهم ، لابد وأنه يختلف عن ذلك الذي يخصص لمرضى عقليين ، لا يكرون ولا يفرون ، بل قد يكر ويفر الأطباء من أمامهم وهذا وذلك يختلف عن ذلك الذي يخصص لقافلة تجارية ، أو بعثة حج إلى بيت الله ، وهكذا .

إن كل نوع من أنواع المرض قد يستلزم تخصيص بيمارستان بعينه لفئة المرضى دون غيرهم وهذا على الأقل ما يمكن أن نلمسه في تخصيص بيمارستانات للمجذومين أو المجانين

بيمارستان الأمراض العقلية

أدرك المسلمون أهمية رعاية المرضى العقليين ، فكثيراً ما ألحقوا بالبيمارستانات الكبيرة مواضع مخصصة ومعزولة بقضبان حديدية خصصوها لمرضى الأمراض العقلية[٣٨] ، حتى لا يتسنى لهؤلاء أن يعتدوا على الأسوياء من المرضى .

وكان الأطباء المسلمون يعلمون أن الأمراض النفسية والعقلية تتطلب نوعاً معيناً من الرعاية ، وتتطلب أيضاً أن يفطن الطبيب إلى بواعث المرض الذي يعاني منه المريض .

والجدير بالذكر أن ابن أبي أصيبعة[٣٩] روى لنا في كتابه « عيون الأنباء » بعض الحالات من هذا النوع ، وكيف أن الطبيب الحاذق وحيد

---

(٣٨) نوشيراوي ، المرجع السابق ، ص ٢٠٢ .

(٣٩) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء، ص ٣٧٩.

الزمان استطاع معالجتها . كان أحد المرضى يعتقد أن على رأسه دنا وأنه لا يفارقه أبداً ، وكان يخشى أن يكسر الدن أثناء مشيه ، فكان يسير برفق حتى لا يكسره. وقد حاول بعض الأطباء علاجه مما به ، فلم يفلحوا ، وانتهى أمر علاجه إلى وحيد الزمان الذي أدرك أن الرجل يعاني من الوهم . فقال لأهله : إذا كنت في الدار فأتوني به ، ثم ان أوحد الزمان أمر أحد غلمانه بأن ذلك المريض إذا دخل عليه وشرع في الكلام معه ، وأشار إلى الغلام بعلامة بينهما ، أن يسارع بعصا كبيرة فيضرب بها فوق رأس المريض كأنه يريد كسر الدن الذي يزعم أنه على رأسه . وفي نفس الوقت أوصى غلاماً آخر ، وكان قد أعد معه دنا في أعلى السطح ، أنه متى رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأس صاحب الماليخوليا أن يرمي الدن عنه بسرعة إلى الأرض . ولما كان أوحد الزمان في داره وأتاه المريض ، شرع في الكلام معه ، وحادثه ، وأنكر عليه حمله للدن، وأشار إلى الغلام الذي عنده ، بدون علم المريض ، فأقبل إليه وقال: والله لابد لي أن أكسر هذا الدن وأريحك منه، ثم أدار تلك الخشبة التي معه وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع ، وعند ذلك رمى الغلام الآخر الدن من أعلى السطح ، فكانت له رجة عظيمة وتكسر قطعاً كثيرة ، فلما عاين المريض ما فعل به ، ورأى الدن المنكسر تأوه لكسره إياه ، ولم يشك أنه هو الذي كان على رأسه ، بزعمه ، وأثر فيه الوهم أثراً برئى به من علته .

بيمارستان المجذومين

خصص هذا النوع من البيمارستان للمصابين بالجذام ، وقد أشرنا في بداية حديثناعن إنشاءالبيمارستانات إلى ما ذكر « نوشيراوي » من أن الوليد بن عبد الملك كان أول من اهتم بإنشاء هذا النوع من البيمارستان .

وكما يروى ابن القفطي[٤٠] ، فإن يوحنا بن ماسويه كان أول من كتب كتاباً عن « الجذام ».

ومبعث الاهتمام بهذا النوع من المرض ، يأتي من فكرة المسلمين عن عزل أصحاب الأمراض المعدية عن بقية المجتمع ، وهذا ما نجده في تصرف أطباء عصرنا هذا حيال الأمراض من هذا النوع .

بيمارستان السبيل

لقد عرف العرب هذا النوع من البيمارستان ، وأدركوا أهميته تماماً ، ذلك أن بعثات الحج إلى الأراضي المقدسة ، أو ركب التجارة عبر المسافات الشاسعة كانت تستلزم رعاية لكل الخارجين ، فقد يتطلب الأمر علاج المصاب ، أو انقاذ امرىء يطلب النجدة ، ولهذا وجدناهم يزودون القوافل ببعثات طبية يعمل فيها أطباء وغلمان يساعدونهم . وربما حفظ لنا ابن القفطي نصاً هاماً وهو بصدد الحديث عن الحكم بن أبي الحكم الدمشقي إذ يقول : « هذا طبيب كان في صدر الدولة العباسية وكان من المعمرين وأبوه أبو الحكم كان طبيباً في صدر الإسلام وسيره معاوية بن أبي سفيان مع ولده يزيد طبيباً إلى مكة عندما سير يزيد أميراً على الحج في أيامه . قال الحكم هذا خرج أبي مع يزيد بن معاوية إلى مكة طبيباً وخرجت أنا مع عبد الصمد بن علي بن عبدالله ابن العباس طبيباً إلى مكة »[٤١] .

ومما لا شك فيه أن نص ابن القفطي الذي أشرنا إليه توا حفظ لنا أقدم فكرة قدمت حول هذا النوع من البيمارستانات . وقد أشار ابن

(٤٠) ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ٢٤٩ .
(٤١) ابن القفطي ، المرجع السابق، ص ١٢٣ .

كثير[٤٢] في البداية والنهاية إلى أن بيمارستانات السبيل كان يتولى أمرها مدير عاقل يعرف لمن يعطي العلاج : كما كان ينفق عليها الأثرياء الذين لهم القدرة على تزويد القوافل ببعثة طبية .

بيمارستان السجن :

كانت عناية المسلمون بالمحبوسين ، من الناحية الطبية ، مثل عنايتهم بالموجودين خارج أسوار الحبس ، ويدل على هذا رسالة الوزير عيسى بن علي الجراح[٤٣] ، وزير المقتدر ، إلى سنان بن ثابت الطبيب النطاسي الذي نبغ في الطب العربي ، وأسلم على يد القاهر . فبعد أن تفقد عيسى بن علي السجون ، وجد ضرورة معالجة المرضى ، وحفظ آدميتهم عليهم ، فبعث برسالته المشهورة إلى سنان يقول فيها : «فكرت مد الله في عمرك، في أمر من في الحبوس، وأنهم لا يخلون، مع كثرة عددهم وجفاء أماكنهم ، أن تنالهم الأمراض ، وهم معوقون من التصرف في منافعهم ، ولقاء من يشاورونه من الأطباء في أمراضهم . فينبغي أكرمك الله أن تفرد لهم أطباء يدخلون إليهم في كل يوم ، ويحملون معهم الأدوية والأشربة وما يحتاجون إليه من المزورات وتقدم إليهم بأن يدخلوا سائر الحبوس ، ويعالجوا من فيها من المرضى ، ويريحوا عللهم فيما يصفونه لهم إن شاء الله تعالى ، ففعل سنان ذلك» .

وكما يذكر لنا ابن القفطي فقد «أشار سنان بن ثابت هذا على المقتدر بأن يتخذ بيمارستان ينسب إليه فأمره باتخاذه له في باب الشام وسماه البيمارستان المقتدري وأنفق عليه من مالهفي كل شهر مائتي دينار»[٤٤] . كان هذا في سنة ٣٠٦ هجرية ، وعين سنان بن ثابت رئيساً

(٤٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٨٨ .
(٤٣) ابن القفطي ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ .
(٤٤) ابن القفطي ، المرجع السابق ص ١٣٣ .

على الأطباء . ولما بلغ المقتدر أن أحد الأطباء في عهده أخطأ فتسبب في موت رجل ، أصدر أمراً إلى سنان بامتحان الأطباء ، فأجرى لهم امتحاناً في بغداد وزاد عددهم على ثمانمائة طبيب(٤٥) .

وكان لسنان بن ثابت الفضل في تدعيم بيمارستان السيدة ، يقول ابن القفطي «وفي أول محرم سنة ست وثلثمائة فتح سنان بن ثابت بيمارستان السيدة الذي اتخذه لها بسوق يحيى وجلس فيه ، ورتب المتطببين به ، وكانت النفقة عليه في كل شهر ست مائة دينار على يدي يوسف بن يحيى المنجم لأن سناناً لم يدخل يده في شيء من نفقات البيمارستان»(٤٦) .

البيمارستان المتنقل :

كان هذا النوع من البيمارستان يجوب القرى والأصقاع والحضر ، حرصاً على صحة الناس الذين يقطنون بعيداً عن حاضرة الدولة ، وحتى تصل خدمات الدولة لكل محتاج في أي مكان . فقد أمر علي بن عيسى الجراح وزير المقتدر ، طبيب الدولة الأول سنان بن ثابت ، في رسالة خطية ، أن ينفذ الأطباء إلى أطراف الدولة ، يقول له في رسالة : «فكرت فيمن بالسواد من أهله ، وأنه لا يخلو من أن يكون فيه مرضى لا يشرف متطبب عليهم لخلو السواد من الأطباء ، فتقدم مد الله في عمرك بإنفاذ متطببين وخزانة من الأدوية والأشربة ، يطوفون في السواد ويقيمون في كل صقع منه مدة ما تدعو الحاجة إلى مقامهم ، ويعالجون من فيه ، ثم ينقلون إلى غيره»(٤٧) . وقد نفذ سنان أمر علي بن عيسى ، لكنه

(٤٥) المرجع السابق ، ص ١٣٠ .
(٤٦) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .
(٤٧) ابن القفطي ، المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

انتهى إلى بلده الغالب على أهلها أنهم يهود ، فهل يعالجهم ويجيب طلباتهم ، أم ينصرف دونهم ؟ لقد استشكل عليه الأمر ، فكتب للوزير علي بن عيسى يخبره بالأمر ، وأنه لا يعرف كيف يتصرف بشأنهم ، ولكن نوه في رسالته بأن الرسم في بيمارستان الحضرة قد جرى للملى والذمي ، فكتب له الوزير قائلاً : «فهمت ما كتبت به أكرمك الله ، وليس بيننا خلاف في أن معالجة أهل الذمة والبهائم صواب ، ولكن الذي يجب تقديمه والعمل به معالجة الناس قبل البهائم ، والمسلمين قبل أهل الذمة ، فإذا فضل عن المسلمين ما لا يحتاجون إليه صرف في الطبقة التي بعدهم ، فأعمل أكرمك الله على ذلك ، واكتب إلى أصحابك به ، ووصى بالتنقل في القرى والمواضع التي فيها الأوباء الكثيرة والأمراض الفاشية ، وإن لم يجدوا بذرقة توقفوا عن المسير حتى يصح لهم الطريق ، ويصلح السبيل ، فإنهم إذا فعلوا هذا وفقوا إن شاء الله تعالى»(٤٨).

لقد كان الاهتمام بالبيمارستانات من واجبات الدولة أولاً ، ولم يغب عن بال كبار الأطباء أن يرسوا قواعد للعمل ولتعليم الطلاب الذين قدموا لتعلم الطب من كل مكان ، ولهذا السبب فقد «نشأت مدارس للطب في العالم الإسلامي ، كان فيها التدريس على منهجين : منهج نظري في المدارس الطبية ومنهج عملي للتدريب والتمرين يجتمع فيه الطلاب حول رئيس الأطباء فيرون كيف يفحص المرضى وما يصف لهم من العلاج . وإذا جاز الطلاب مدة الدراسة تقدموا للامتحان ثم أقسموا اليمين ونالوا الشهادة . ثم إذا هم بدأوا ممارسة التطبيب كانوا دائماً تحت رقابة الدولة»(٤٩) ، وهذا يعني بطبيعة لحال أن البيمارستانات كانت

---

(٤٨) المرجع السابق ، ص ١٣٢ ـ ص ١٣٣ .

(٤٩) عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٢٧٦ .

معـاهد لتعليم الـطب وإتمام دراسـة الأطباء المبتـدئين[٥٠] ومن النـاحيـة العملية كان الأساتذة يقومون بوصف العلاج للمـرضى ، والكشف عليهم في وجـود التلاميـذ الذين يتلقـون العلم عليهم ، ويكتبـون تعليمـاتهم ، ويقوم المتدرب في الـطب بتنفيذ تلك التعليمـات بصورة منـظمة ومتـابعة المـرضى ، وبهذه الصـورة يكتسبون الخبـرة العملية الـواجبة على دارس الطب[٥١] .

---

(٥٠) عبد الرحمن مرحبا ، الموجز في تاريخ العلوم ، ص ٩٣.

(٥١) جـرجيس فتح الله ، ملحق عن ادارة المستشفيـات والمراقبـة الصحيـة في المجتمـع الإسلامي ، ذيل به المترجم مقاله مـاكس مايـرهوف في كتـابه « تـراث الإسلام » ص ٥١٢.

الفصل الثالث

أصول المنهج عند الأطباء المسلمين

أصول المنهج عند الأطباء المسلمين

يعتبر المنهج الفكرة المركزية التي تميِّز أي علم من العلوم. والعلم ، أو العالم ، الذي يعمل بدون منهج لن يصل لكشف علمي ، ولن تتاح له فرصة الإضافة العلمية ، ومن ثم يصبح ناقلاً مردداً لكلام الآخرين .

والعلماء والأطباء العرب كانوا يدركون جيداً أهمية أن تأتي أفكارهم نتيجة لمنهج اتبع في البحث ، وقواعد معينة التزموا بها . ولذا وجدناهم يجمعون بين الحس والعقل ، يناقشون عقلياً ومنطقياً ما يعرضه الحس في ضوء ما سبق أن دونه أفاضل العلماء .

ورغم أنه من العسير أن نزعم أن المسلمين كتبوا كتابات واضحة في المنهج ، كما هو الحال اليوم؛ إلا أنه يتضح من الكتابات التي بين أيدينا أنهم كانوا يتبعون طريقة أكاديمية دقيقة في الدرس والتلقين ، حين كانوا يتحدثون عن الموضوعات التي يكتبون فيها ويريدون للناس معرفتها .

لقد توصل أفاضل العلماء والأطباء في عهود الدولة الإسلامية الزاهرة ، إلى نتائج علمية باهرة ، انتقلت بكل تأكيد إلى العالم الغربي ، إلى أوربا اللاتينية ، واستفاد منها العلم الأوربي في عصر النهضة ، وهذا ما جعل عالم الإسلاميات المصري على سامي النشار

يذهب في مؤلفه القيم «مناهج البحث عند مفكري الإسلام : واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي» الذي نشره لأول مرة عام ١٩٤٧ ، يقول في مقدمته «ولقد أيقنت أنني أمام أعظم كشف عرفه العالم الأوربي فيما بعد اكتشاف المنهج التجريبي في العالم الإسلامي في أكمل صوره»[٥٢] .

والحديث عن المنهج يمكن أن ينقسم إلى قسمين : الأول ، الخطوات التي اتبعت أثناء البحث والدراسة . والثاني ، السمات والملامح العامة التي ميّزت المنهج وجعلته يخدم أغراض البحث العلمي ، ويضفي على أعمال العلماء صفة وطابع الأصالة والجدّة ، ومن ثم جعلتهم يتوصلون إلى اكتشافات علمية هامة سبقوا بها العالم الأوربي بقرون طويلة .

أولاً : الخطوات التي كانت تتبع في البحث :

كما سبق أن أشرنا ، المنهج عصب البحث العلمي ، فإن اتجهت إلى بحث موضوع من الموضوعات دون أن يكون لديك طريقة معينة ، أو أسلوب تعالج من خلاله هذا الموضوع ، أو خطة معينة تسير وفقاً لها في بحثك ، إن لم يكن لديك خطة ، فلن تصل إلى شيء ، أي لن تتأتى إلى نتائج بحثية يستفاد منها نظرياً أو تطبيقياً .

ومع أنه لم يكن لدى العلماء في حاضرة الدولة الإسلامية ، أو في ربوعها كتابات واضحة متخصصة ، فيما نطلق عليه المنهج ؛ إلا أن القواعد والأصول والخطوات كانت واضحة في عقول هؤلاء ، وكانوا ينبهون القارىء والطلاب إلى أهميتها بين الحين والآخر . ويمكن لنا من بين الكتابات المتعددة أن نستخلص القواعد العامة التي سارت الأبحاث

---

(٥٢) علي سامي النشار ، مناهج البحث عند مفكري الإسلام، ص ١١ .

العلمية في الطب وفقاً لها ، بحيث انتهى الأمر إلى ازدهار هذا العلم بالصورة التي أذهلت العالم اللاتيني .

١ ـ المشاهدة والوصف :

من المألوف أن نجد بعض الأمراض تتشابه في أعراضها لدرجة أن يصبح التمييز بينها أمراً يتطلب مهارة وبراعة الطبيب . ومثل هذا الأمر كثيراً ما تعرض له الأطباء المسلمون ، ويمكن لنا أن نستدل على ذلك بأمثلة وشواهد متعددة وجدت في تاريخ الطب العربي ، فهذا هو الرازي[٥٣] الذي عرف ببراعته الطبية والعلمية ، عقلية شهد لها الطب الأوربي قبل العربي ، يصف لنا في رسالة له عن «الجدري والحصبة»

---

(٥٣) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، يعتبر من أهم الشخصيات الطبية في العالم الإسلامي ، فقد خلف لنا تراثاً طبياً هاماً، ترجم أكثره إلى اللغة اللاتينية إبان عصر الترجمة والنقل . وذاع صيته في دوائر الأوساط العلمية والطبية ، في أوربا بصفة خاصة . ومع أن مؤلفات الرازي كثيرة ومتعددة ، إلا أنه حدثت بعض الاختلافات الطفيفة بين المؤرخين حول بعض المسميات ، خاصة وأن ابن النديم وهو من أقدم المصادر التي لدينا يذكر في « الفهرست » كتاب الحاوي ويسمى الجامع الحاصر لصناعة الطب » وقد ذكر ابن جلجل في « طبقات الأطباء والحكماء » كتابه الذي سماه كتاب الجامع سبعون مقالة»، أما ابن أبي أصيبعة فيرى على خلاف ابن النديم ضرورة التمييز بين ما يسمى « الجامع الحاصر لصناعة الطب » . لقد ذكر ابن النديم في « الفهرست » أقدم نص لتصنيف ومحتويات « كتاب الحاوي » ، فالرازي لم يصنف الكتاب ، ولكن ابن النديم صنفه بقوله « وينقسم هذا الكتاب إلى اثني عشر قسماً » . القسم الأول منه ، في علاج المرض والأمراض . القسم الثاني في حفظ الصحة . القسم الثالث في الرثة والجبر والجراحات . القسم الرابع في قوى الأدوية والأغذية وجميع ما يحتاج إليه من المواد في الطب . القسم الخامس في الأدوية المركبة . القسم السادس في صنعة الطب . القسم السابع في صيدلة الطب ، الأدوية وألوانها وطعومها وروائحها . القسم الثامن في الأبدان . القسم التاسع في الأوزان والمكاييل . القسم العاشر في التشريح ومنافع الأعضاء . القسم الحادي عشر في الأسباب الطبيعية عن صناعة الطب . القسم الثاني عشر في المدخل إلى صناعة الطب ، مقالتان في الأولى الأسماء الطبية . وفي الثانية أوائل الطب » (الفهرست، ص ٣٥٧ـ ٣٥٨).

مرض الجدري الذي شاهد أعراضه قائلاً «يسبق ظهور الجدري حمى مستمرة تحدث وجعاً في الظهر وأكلان في الأنف ، وقشعريرة أثناء النوم . . . . » ، إلى آخر هذا النص ، مما سيأتي ذكره بعد قليل .

لقد فطن العلماء الأجلاء إلى خطوة الملاحظة والوصف والمقارنة وبيان أوجه الشبه والاختلاف . وأدركوا أن هناك ملاحظات كيفية تبيِّن لنا جوانب ما ندرسه .

مثال ١ : الملاحظة الكيفية .

اهتم البغدادي بدراسة أعراض البول السكري . وهو يقول لنا في فقرتين متتاليتين «عند فحص البول يجب على المرء أن يهتم بملاحظة الكمية فيما إذا كانت قليلة أو كثيرة ، وأن يلاحظ لون البول وطعمه ورائحته وقوامه أي إذا ما كان رقيقاً أو سميكاً . . . » وفي موضع آخر يقول : «في حالة فحص البول يجب فحص ثلاثة أشياء : لونه وقوامه وثقله ، وبالإضافة إلى ذلك يجب أن تفحص رائحته ودرجة حرارته عند وضع الأصبع فيه ، وكذلك يجب أن يفحص خاصة مذاقه اللاسع»(٥٤) .

مثال ٢ : الملاحظة المقارنة وارتباط الحس بالعقل .

كذلك لم يتوقف البغدادي عن متابعة مشاهداته ، فقد أثبت أن جالينوس وقع في أخطاء . كان جالينوس قد ذهب إلى أن الفك الأسفل في الإنسان مكون من جزئين متصلين عند الذقن بمفصل ، لكن البغدادي استطاع من خلال ملاحظاته الدقيقة أن يصور لنا الوضع الحقيقي والذي يتمثل في أن الفك الأسفل في الحيوانات الثديية مكون من نصفين يتحدان عاجلاً أو آجلاً ودرجة الاتحاد تزيد أو تنقص لتكون

---

(٥٤) مانفريد أولمان ، الطب الإسلامي ، ص ١٢٥ وما بعدها .

ارتفاقاً قوياً في المستوى الوسطي من الذقن في أصناف مختلف الثدييات ، ومن الثدييات العليا والمخلوقات البشرية يكون اتحاد العظم في نصفي الذقن قد تم بقوة بعد الولادة مباشرة بحيث أن الفك الأسفل يكون عظمة واحدة[٥٥] .

لقد وقف البغدادي على أصول رأي جالينوس في هذا الجانب ؛ إلا أن مشاهداته الحسية كانت تخالف ما زعمه جالينوس ، ومن ثم استطاع من خلال تركيز انتباهه على ما هو مشاهد ، أن يدرك جوانب الشبه والاختلاف فيما هو موجود أمامه مزوداً بقدرة على التمييز والفهم الدقيق .

لقد عثر البغدادي في مكان قريب من القاهرة على مقبرة من العظام الآدمية عدَّ فيها أكثر من ألفي جمجمة . وحين نظر البغدادي في شكل العظام والمفاصل والطريقة التي اتصلت بها ، أثبت أن الفك الأسفل يتألف من قطعة واحدة لا من قطعتين كما زعم جالينوس في الفصل السادس من كتابه «العظام عند الصغار» حيث يقول : «إن الفك الأسفل يتألف من جزئين ، ويمكن إثبات ذلك بمعرفة أنه يتصدع في وسطه من الجهة الأمامية عندما يطبخ» .

لكن البغدادي قرر وفقاً لمشاهدته الدقيقة أنه «إذا كان الفك الأسفل مكوناً من جزئين متصلين بمفصل فعلي الأقل يمكن رؤية هذا المفصل في العظام البالية الهشة ذلك لأن تفتيت العظام يبدأ أولاً في المفاصل»[٥٦] .

نلاحظ من هذه الأمثلة القليلة مدى أهمية خطوة الملاحظة العلمية

---

(٥٥) المرجع السابق ، نفسه الموضع .

(٥٦) المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

الدقيقة عند علماء العرب ، ومدى ارتباط الملاحظة بالوصف المستمر من الواقع مباشرة ، ومدى تفكيرهم في الربط بين جزئيات الموضوعات الملاحظة والتي يقدمون وصفاً لها ، ويدل على ذلك مثال البغدادي الذي أشرنا إليه تواً ، وكيف أن مشاهدة وصفية واحدة أوقفته على خطأ رأي ساد لفترة طويلة ، واعتنقه الأطباء منذ جالينوس . وسوف نتبيَّن ملاحظات أكثر دقة أثناء عرضنا لبعض الآراء الهامة .

لكن يهمنا أن نشير إلى أن البغدادي ، وغيره من العلماء أيضاً ، لم يركنوا إلى كلام جالينوس أو غيره ، وهذا ما سوف نراه جليّاً في حالة ابن النفيس . لقد اقترنت المشاهدات الحسية عند هؤلاء بأعمال جيدة للعقل فيما يعرض للحس . قد يخطىء الحس ، لكن العقل لا بد له وأن يصحح الخطأ .

٢ - التجربة والاختبار :

اهتم الأطباء المسلمون بالاحتكام إلى التجربة ، فالتجربة خير شاهد على صحة الرأي وصوابه ، ولهذا السبب ذكر الرازي في كتابه خواص الأشياء نصوصاً متعددة عن التجربة ، نقتبس منها رأيه الذي يقول فيه «بل نضيف ما أدركناه بالتجارب وشهد لنا الناس به ، ولا نحل شيئاً عن ذلك عندنا محل الثقة إلا بعد الامتحان والتجربة له»[٥٧] .

كذلك فإن الرازي يرى أن الطبيب البارع لا بد أن يتصف بصفتين معاً وهما أن «يجمع رجلين أحدهما فاضل في الفن العلمي من الطب ، والآخر كثير الدربة والتجربة له»[٥٨] من هذا المنطلق نجد أن الرازي

---

(٥٧) نقلاً عن جلال موسى ، المرجع السابق ، ص ١٢٨ .
(٥٨) نقلاً عن جلال موسى ، المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

التـزم دومـاً بـالتجـربـة من حيث هي المعيـار الـرئيسي في الحكم على الأشياء ، وما دامت التجربة هي المعيار فإن الطبيب يلجأ إليها دائماً «في الفصل بين الحق والباطـل في أمر هـذه الخواص التي قـد تكون مـوضع تكذيب الأردياء من القوم»(٥٩) .

مثل هذه النصوص وغيرها ، تكشف لنا إلى أي مدى اهتم العلماء في هذه الفترة من الـزمان بتـأسيس العلم على أسس علمية سليمـة . ولا يمكن لنا بحال من الأحوال أن نتخذ المعايير التي يعمل من خلالها العلم اليوم في القرن العشرين أساساً للحكم على علم أنتجته العقلية الإسلامية منذ أكثر من ألف عام تقريباً .

لقد برع المسلمون في فن الطب وتوصلوا لإنجازات هامة فنجدهـم أسهموا في كيفية التمييـز بين مرض وآخـر ، وتحديـد كثير من الأمـراض المعدية والتي يمكن أن يطلق عليها اسم الأوبئة ، ولم يكتفوا بالتمييز بين الأمـراض المعديـة وبعضها وإنمـا وصفوا كـل مرض على حـدة من واقع المشـاهـدات والمـلاحـظات التي بـدت لهم وعـلامـات ظهـور المـرض وتـطوره ، وهناك العـديـد من الأمثلة التي تشيـر إلى ذلـك . على سبيـل المثـال كـان الـرازي «أول من وصف بـدقـة ووضـوح مــرض الجـدري والحصبـة(٦٠) ، وابن زهر كـان أول من وصف إخراج الحيـزوم والتهـاب

---

(٥٩) جلال موسى ، المرجع السابق، ص ١٨٢ .

(٦٠) كتاب الرازي في « الجدري والحصبة » لقي عنـاية شـديدة لـدى اللاتين فقـد أعدت للنص العربي ترجمة لاتينية طبعت لأول مرة عام ١٤٩٨ ، وتـوالت طبعاتهـا حتى عام ١٨٦٦ وبلغت تلك الطبعات أربعين طبعة متتالية ، فصـدرت في البندقيـة عام ١٤٩٨ وبـاشيل ١٥٢٩ـ ١٥٤٤ ، ولنـدن ١٧٤٧ وجـوتنجن ١٧٨١ وكـذلـك صـدرت نشـرة فرنسية بعناية ليكليرك ولينوار عـام ١٨٦٦ ، وسبقتها تـرجمة أخـرى في عام ١٧٦٣ . وإلى اليونانية ترجم الكتاب في عام ١٥٤٨ حيث صـدرت نشرتـه في باريس ، راجـع في ذلك: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ج ٤ ، ص ط .

التـامـور النـاشف والانسكـابي»[٦١] . ويمكن أن نتبيَّن الـدقـة من ذلـك الوصف الذي يقـدمه الـرازي في التمييز بين الجـدري والحصبة ، حيث يقـول : «يسبق ظهور الجـدري حمى مستمرة تحـدث وجعاً في الـظهـر وأكلان في الأنف وقشعريرة أثناء النـوم . والأعراض الهـامة الـدالة عليـه هي : وجـع الظهـر مع الحمى والألم الـلاذع في الجسم كله ، واحتقان الوجه وتقبضه أحياناً ، وحمرة حادة في الخدين والعينين ، وشعور بضغط في الجسم ويـزحف في اللحم وألم في الحلق وفي الصـدر مصحـوب بصعوبة في التنفس ، وسعال وقلة راحة . والتهيـج والغثيان والقلق أظهـر في الحصبة منها في الجدري على حين أن وجع الظهر أشد في الجدري منه في الحصبة»[٦٢] . وقـد ذكر الـرازي أيضاً كيفيـة العدوى الـوراثية . ولم تكن الآراء التي يوردها الرازي نتيجة لجهـوده الخاصـة فقط ، وإنما نحن نجده حين يتحدث عن مـرض من الأمراض يقـوم أولاً بجمع الآراء التي ذكـرت عن هذا المـرض أو ذلـك عن الإغـريق والسـريـان والهنـود والفـرس والعرب ، ثم يبـدأ بعـد ذلـك في عـرض رأيـه والتجـارب التي أجراها والمشاهدات التي توصل إليها نتيجة عمليـة التشخيص والعلاج . وفي مجـال الجراحـة أخذ مكـان الصدارة بين معـاصـريـه إذ أنـه عـالـج بالجراحة الحصوات المتولدة في الكلى والمثانة .

---

(٦١) قدري حافظ طوقان ، العلوم عند العرب ، ص ٢٠ وأيضاً:
(أ) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المدنية الإسنية ، ص ١٥٠ .
(ب) عبد الرحمن مرحبا ، الموجز، ص ٩٤.
(جـ) عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٢٤٢ .
(د) حيدر بامات ، إسهام المسلمين، ص ١١١ .

(٦٢) النص ذكره براون : Browne, G.E. , Arabian Medicine, P. 44.
ونقله : سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ ـ ص ١٥١ . وأيضاً : ماكس مايرهوف ، العلم والطب ، ص ٤٦٤ .

ومن الأمثلة الأخرى أن ابن سينا «كان يفرق بين الالتهاب الرئوي والبلوراوي ، وبين التهاب السحايا الحاد والثانوي ، وبين المغص المعوي والمغص الكلوي»(٦٣) . أضف إلى هذا أن ثمة إضافات هامة قدمها ابن سينا في مجال الطب خاصة في كتابه القانون(٦٤) الذي فيه نجد «أول وصف لداء الفيلاريا (مرض الفيل) وانتشاره في الجسم ، وأول وصف للجمرة الخبيثة التي أسماها العرب النار الفارسية(٦٥) . ويذكر ابن سينا في كتابه القانون أن العدوى تسري بالماء والتراب ، كما وصف دورة الانكلستوما(٦٦) ووضح أثرها في الجسم . وفي التشريح لم يترك ابن سينا في كتابه القانون عضواً من أعضاء الجسم ، حتى تشريح الأسنان وعظام الفكين ، وفي كلامه عن الأعصاب والعضل يتناول

---

(٦٣) قدري حافظ طوقان ، المرجع السابق، ص ٢٠ وأيضاً : عبد الرحمن مرحبا . المرجع السابق، ص ٩٦ .

(٦٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٥٤ .
وكتاب القانون لابن سينا من أهم الأعمال التي أثرت في أوربا بصورة كبيرة . وهو ينقسم إلى خمسة كتب هي على الترتيب :
الكتاب الأول : الكليات ويبحث فيه وظائف الأعضاء وعلم تصنيف الأمراض وعلم الأسباب وعلم الأمراض ومبادىء العلاج .
الكتاب الثاني : ويشرح فيه الأدوية المفردة .
الكتاب الثالث : وقد اهتم فيه بدراسة الأمراض المحلية التي تصيب الإنسان مرتبة حسب مكان وجودها في الجسم من قمة الرأس حتى القدمين .
الكتاب الرابع : وفيه يعرض للأمراض التي تصيب الجسم كله مثل الحميات والكسور والقروح والسموم .
الكتاب الخامس : وفيه يبحث تركيب الأدوية وكيف يمكن للصيدلي أن يركبها .

(٦٥) قدري حافظ طوقان ، المرجع السابق، ص ٢١ ، وأيضاً: عبد الرحمن مرحبا ، المرجع السابق ، ص ٩٦.

(٦٦) قدري حافظ طوقان ، المرجع السابق ، ص ٢١ ، وأيضاً: عبد الرحمن مرحبا ، المرجع السابق ص ٩٦.

أعصاب الوجه والجبهة والمقلة والجفن والخد والشفة واللسان فضلاً عن أعصاب النخاع والصدر .

وحين يذكر ابن سينا الأعصاب يتعرض لدراسة حالات الشلل ، فنجده يصف الشلل النصفي ويميز بينه وبين نوعين رئيسيين منه الأول شلل الوجه الناتج عن سبب مركزي في الدماغ . والثاني الشلل الناتج عن سبب محلي(٦٧) . ويبدو أن علاج حالات الشلل كانت مألوفة عند الأطباء في العالم الإسلامي في ذلك العصر ، وقد نشأت تحت تأثير اهتماماتهم بعلاج الأمراض العقلية التي برعوا فيها ، وخصصوا أجنحة خاصة في البيمارستانات فعلى سبيل المثال نجدهم يسلكون أحد ثلاث طرق في علاج مثل هذه الحالات (نقصد حالات الشلل والأمراض العصبية) ففي حالات الشلل كانوا يلجأون للأدوية المبردة على خلاف طريقة اليونان المألوفة والتي كانت تلجأ إلى الطرق الحارة في العلاج . أو هم كانوا يلجأون إلى استخدام ما يشبه الصدمات الكهربية في أيامنا هذه ، ذلك أن زكريا هاشم يروي عن سيديو أن المسلمين كانوا أول من استعمل الكهرباء في علاج الصرع والأمراض العصبية بواسطة نوع من السمك يعرف بالرعاد حيث يوضع في الماء حياً ويوصل بالماء شريطين من الصلب يمسك بهما المريض فتحصل لديه رعشة ، فلا يقوى على مسك الشريطين مدة طويلة ، فيلقى بهما على الأرض ، وبعد بضعة أيام من هذه العملية يشفي المريض من الصرع(٦٨) . وأما الطريقة الثالثة فكانت تقوم على العلاج السيكولوجي ، وهناك أمثلة عليها ، فقد كان

---

(٦٧) قدري حافظ طوقان ، المرجع السابق ، ص ٢١ ، وأيضاً عبد الرحمن مرحبا ، المرجع السابق ص ٩٦.

(٦٨) زكريا هاشم زكريا ، فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم ، الفصل السابع ص ٤٠٢ ـ ٤٤٠ ، وأيضاً : قدري حافظ طوقان ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

لهارون الرشيد جارية أصيبت بنوع من الشلل الهستيري بينما كانت ترفع يدها إلى أعلا ، وظلت يدها معلقة إلى أعلا ، وحار الأطباء في علاجها مما دعا الرشيد إلى استقدام جبريل بن بختيشوع لعلاجها ، فسأله الأمان حين يعالجها أمامه ، وقال : «إنْ لم يسخط أمير المؤمنين علي فلها عندي حيلة» فقال الرشيد : ما هي ؟ قال الطبيب : تخرج الجارية إلى هنا بحضرة الجمع حتى أعمل ما أريد وتتمهل عليّ ولا تسخط عاجلاً . فأمر الرشيد فخرجت وحين رآها جبريل أسرع إليها ونكس رأسها وأمسك ذيلها وكأنه يريد أن يعريها أمام الجمع فانزعجت الجارية وصدمت لذلك التصرف ، ودفعها الحياء إلى بسط يدها إلى أسفل لتمسك ذيلها وتستر جسدها . وعندئذ التفت الطبيب جبريل إلى الخليفة وقال : لقد برئت يا أمير المؤمنين[٦٩] . تلك الأمثلة الثلاثة تكشف عن ذكاء الأطباء في العالم الإسلامي وثاقب بصيرتهم بالحالة المعروضة أمامهم ، وكيفية تقديم العلاج الناجح لكل مرض بعد أن يكونوا قد فحصوه فحصاً جيداً ووقفوا على أسباب وحقيقة وكيفية تطوره من خلال المشاهدة العلمية .

كذلك نجد أن المسلمين عرفوا بكل دقة الأمراض الأخرى الهامة والتي لم يكن معروفاً تشخيصها في الطب القديم ، فكانوا «أول من كتب في الجذام وفي إصلاح الخلل الضمي وأقواس الأسنان ، ونسبوا البواسير إلى قبض المعدة ، وأشاروا بالمأكولات النباتية علاجاً لها»[٧٠] . وهم أيضاً «أول من وجه الفكر إلى شكل الأظافر عند المسلولين ، ووصفوا علاج اليرقان والهواء الأصفر ، واستعملوا الأفيون بمقادير لمعالجة الجنون ، ووصفوا صب الماء البارد لمعالجة النزيف ، وعالجوا خلع

---

(٦٩) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول، ص ١٣١ .

(٧٠) قدري حافظ طوقان ، المرجع السابق ، ص ٢٠ .

الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة برد المقاومة الفجائي»[٧١] . كما كان الطبري أول من اكتشف الحشرة التي تسبب الجرب»[٧٢] .

ومن المآثر التي تذكر للمسلمين أيضاً في مجال الطب ، الجراحة فهم أول من استخدم البنج (المرقد) في العمليات الجراحية[٧٣] . ويعتبر أبو القاسم الزهراوي[٧٤] ، «أكبر من برع في عمل اليد وإجراء العمليات الجراحية والاستعانة بالآلات والأدوات . وقد وضع كتاب (التعريف لمن عجز عن التأليف) ، وهو ثلاثة أقسام : الأول في الطب ، والثاني في الأقرباذين والكيمياء ، والثالث في الجراحة » [٧٥] . ويعتبر مرجع الزهراوي المذكور من الرسائل الهامة في وصف الآلات المستخدمة في إجراء العمليات الجراحية وكيفية استخدامها ، مع بيان تفصيلات كل منها بالرسوم الإيضاحية وقد اكتسب أهمية كبرى ، على اعتبار أنه الأول من نوعه في الموضوع[٧٦] وكان

---

(٧١) المرجع السابق ، ص ٢١ .

(٧٢) المرجع السابق، ص ٢١ .

(٧٣) جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٥١٨ ، وأيضاً :

(أ) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٦٥ .
(ب) عبد الرحمن مرحبا ، المرجع السابق ، ص ٩٣ .
(جـ) عبد المنعم ماجد ، المرجع السابق ، ص ٤٢٦ .
(د) حيدر بامات ، المرجع السابق، ص ١١٢ .
(هـ) قدري حافظ طوقان ، المرجع السابق، ص ٢٠ .

(٧٤) الزهراوي هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي، من أطباء قرطبة البارزين في عهد عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) والحكم المستنصر . (٩٦١- ٩٧٦) توفي في عام ١٠٠٩ .

(٧٥) قدري حافظ طوقان ، المرجع السابق ، ص ٢٤ .

(٧٦) سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ ، وأيضاً : عبد الرحمن مرحبا ، المرجع السابق ، ص ٩٣، ص ٩٤ .

الزهراوي أول من وُفِقَ إلى ربط الشرايين لمنع النزيف[٧٧] . فقد عرف العرب في هذا العصر تشريح الشرايين والأوردة الرئوية ، بل إن ابن النفيس يقدم لنا لأول مرة في التاريخ الوصف الكامل للدورة الدموية . فالاعتقاد الذي ساد منذ عصر جالينوس حتى الوقت الذي ظهر فيه ابن النفيس كان يزعم أن الدم يتولد في الكبد ومنه ينتقل إلى البطين الأيمن في القلب ثم يسري بعد ذلك في العروق إلى مختلف أعضاء الجسم فيغذيها وأن بعض الدم يدخل البطين الأيسر عن طريق مسام في الحجاب الحاجز فيمتزج بالهواء الذي يأتي من الرئتين . لكن ابن النفيس وجد أن عملية تنقية الدم إنما تحدث في الرئتين بسبب اتحاده بالهواء عند التنفس. فالدم ينساب من البطين الأيمن إلى الرئة حيث يمتزج بالهواء وينقي ، ثم ينتقل إلى البطين الأيسر ، وتلك هي الدورة الدموية الصغرى التي اكتشفها ابن النفيس[٧٨] . يقول حيدر بامات « كما أن ابن النفيس ـ وصف بكل دقة الدورة الدموية قبل ثمان مائة سنة من سرفيت البرتغالي الذي ينسب إليه عادة هذا الاكتشاف »[٧٩].

فرع آخر من فروع الطب التي برع فيها المسلمون هو طب العيون ، لم يهمل العرب الاشتغال بطب العيون ، وإنما دفعتهم طبيعة البيئة الحارة في البلاد الإسلامية إلى دراسة هذا الفرع من التخصصات الطبية والإسهام فيه بصورة واضحة تدعو للعجب « ولعل كتاب صلاح ابن يوسف الكحال في العين ، هو أكبر مرجع جامع في أمراض العين ، وقد جعله على فصول في وصف العين ، ووصف البصر وأمراض العين وأسبابها ، وأعراضها ، وحفظ صحة العين وأمراض الجفون ، وأمراض

---

(٧٧) زكريا هاشم زكريا ، المرجع السابق ، الفصل السابع .

(٧٨) عبد الرحمن مرحبا ، المرجع السابق ، ص ٩٧.

(٧٩) حيدر بامات ، المرجع السابق ، ص ١١٣ ـ ص ١١٤ .

الملتحمة ، وأمراض القرنية وأمراض الحدقة ، وأمراض العين التي لا تقع تحت الحواس ، وأدوية العيون »[٨٠] .

ثانياً : السمات التي ميّزت منهج وكتابات الأطباء

لقد كانت هناك سمات عامة ميّزت المنهج الذي استخدمه العلماء والأطباء ، على اختلاف أنواعهم ، وأثناء ازدهار الحضارة الإسلامية ، وهذه السمات يمكن أن نتبينها كما يلي :

١ ـ المناقشة وعدم قبول الآراء دون إثبات أو نفي : كان الأطباء لا يقبلون كلام الفاضلين ، أو حتى العلماء السابقين دون مناقشة وتمحيص . والدليل على ذلك ما نجده عند ابن أبي أصيبعة في « عيون الأنباء » في مواضع كثيرة حين يعرض الآراء ويناقشها ، ويمتحنها بحس الناقد والطبيب والعالم المؤرخ ، ويحاول أن يتبيّن جوانب التناقض فيها[٨١] .

٢ ـ التحليل الواعي والدقيق : وهنا نجد أمثلة متعددة نختار من بينها مثالاً ضربه لنا ابن النفيس ، علامة الطب العربي ، يقول ابن النفيس في شرحه على تقدمه المعرفة لابقراط، ما يلي : « قال ابقراط : إني أرى أنه من أفضل الأمور أن يستعمل الطبيب سابق النظر » . . . لفظ النظر يقال على معانٍ ، المشهور منها ستة، أحدها تأمل الشيء بالعين ، وثانيها الانتظار ، وثالثها المقابلة ، يقال دور مناظرة أي متقابلة ؛ ورابعها العناية ، يقال نظر الله إلى فلان أي اعتنى به ؛

---

(٨٠) قدري حافظ طوقان ، المرجع السابق ، ص ٢٣ أيضاً : سعيد عاشور المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٨١) محمد شحاده كرزون ، ابن أبي اصيبعة ومصنفه في طبقات الأطباء، ص ١٥١ .

وخامسها الفكر والرويَّة ، يقال كذا فيه نـظر أي فيه فكـر ؛ وسادسهـا العلم . . . ولــذلـك يسمى الجـزء العلمي من الـطب ، بــالجـزء النظري . وهذا المعنى هو المراد ههنا . فيكون معنى كلام ابقراط : إني أرى أنـه من أفضل الأمـور أن يستعمـل الـطبيب سـابق العلم . وسابق العلم عند الأطباء ، اسم للعلامة الدالـة على أمر مستقبـل ؛ واستعمال ذلك هو الإعلان بما يدل عليـه . وإنما قـال « أن يستعمل الـطبيب » ولـم يقل « المتـطبب » لأن استعمال ذلـك إنمـا يتـأنى في الـطبيب »[٨٢]. ثم يستمـد ابن النفيس في تحليـل كـلام ابقــراط ، وينتقل من نقطة إلى أخـرى انتقال المحلل المـدقق كأروع مـا يكون التحليل والنقاش الفعلي .

٣ ـ الأمانة العلميـة : وتلك خاصيـة ميَّزت كتب العلمـاء العرب على مـر العصور . والأمانة العلمية درجات :

(أ) اسناد الآراء إلى قائليها . لقد ذكـر ابن البيطار في مقـدمته التي صدَّر بها كتـاب الجامـع لمفردات الأدويـة والأغذيـة ، ما نصـه « واسندت في جميع ذلـك الأقوال إلى قـائليها ، وعـرفت طرق النقل فيها بذكر ناقلها واختصصت بم تم لي به الاستبداد وصح لي القول فيه ووضح عندي عليه الاعتماد[٨٣].

وفي الغرض الثاني يذكر ابن البيطار « صحة النقـل فيما أذكـره عن الأقدمين وأحرره عن المتـأخرين فـأصح عنـدي بالمشـاهدة والنظر »[٨٤].

(ب) عدم ادعاء فضل الابتكار . ذكر ابن الجزار القيرواني في كتابـه

---

(٨٢) انظر تحقيقنا لكتاب شرح تقدمـة المعـرفـة . المقـالـة الأولى تحت الـطبـع .
(٨٣) ابن البيطار ، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، ص ٢ .
(٨٤) المرجع السابق ص ٣ .

الموسوم « كتاب سياسة الصبيان وتدبير أمورهم » ما يلي في المقدمة « رأيت أن أجمع المتفرق من ذلك في الكتب الكثيرة ، وألفت بعضه إلى بعض في هذا الكتاب كالذي يؤلف من الجوهر اكليلاً بهيا ، وينظم منه عقداً حسناً ، وأضمنه جميع ما علمت أن جالينوس قاله في ذلك ، وأضيف إلى ما أجمع من الكتب مبوباً » .

(جـ) استخدام عبارات معينة تدل على عدم التحري تماماً . لقد عهدنا الكتاب والعلماء يلجئون إلى هذا الأسلوب كثيراً ، حيث يستخدم العالم عبارات معينة ، لا تدل على انه يقطع بما يقول؛ وإنما تدل على انه يضع ما يقول بين قوسين ، إلى أن يتم التحري عن صدق المروي ، أو يشاهد الأمر عيانا . ومن الأمثلة الدالة على ذلك كتاب ابن أبي أصيبعة. لقد فطن صاحب العيون وهو طبيب كحال ، ومؤرخ علم ، إلى أهمية إثبات هذا الأمر ، فنجده في الأمور التي لم يعاينها أو يشاهدها بنفسه يستخدم العبارات من مثل « حدثني بعض الأطباء » أو « حدثني أهالي حلب » . وإذا كان نقل عن بعض الكتابات القديمة ، أو استمد معلوماته من مصدر سابق عليه تناول الموضوع بصورة أو بأخرى ، ذكر ذلك أيضاً وقال « نقلت من بعض التواريخ » . أو قال: « وجدت في بعض الكتب » ، وهكذا[٨٥].

٤ ـ حرية الرأي وتقرير ما هو مشاهد دون الالتزام بالنظريات القديمة . وأوضح مثال على ذلك ما يذكره ابن النفيس في مقدمته لشرح تشريع

---

(٨٥) محمد شحاده كرزون ، المرجع السابق، ص ١٤٩ .

القانون ، إذ يقرر « وأما منافع كل واحد من الأعضاء فإنا نعتمد في تعرفها على ما يقتضيه النظر المحقق ، والبحث المستقيم ، ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفه ».

أضف إلى هذا أن العلماء العرب تخلّوا بالثقة بالنفس ، والاعتداد بالرأي العلمي الجريء ، واتسمت كتاباتهم بسلاسة الأسلوب ، ودقة العرض ، وخلوها من التناقض ، واعتمدت في بعض الأحيان على استخدام أسلوب التورية ، كما هو في حالة ابن النفيس ، حتى لا يصطدم برجال الدين . ومع أنهم كانوا يقدرون ابقراط وجالينوس بصورة مذهلة ، إلا أنهم لم يتميزوا لأحد الفاضلين وإنما كانوا يثبتون الأخطاء التي يقابلونها في موضعها تماماً ، حتى لا يتهم الواحد منهم .

وفي مقابل هذا الذي نجده عند العلماء الأطباء العرب نجد علماء الغرب في ذات الفترة يبيحون لانفسهم نسبة ما ليس لهم . والدليل على ذلك أن كتابات ماكس مايرهوف اثبتت أن قسطنطين الافريقي الذي كتب اسمه على أروع الكتابات العربية ما هو إلاَّ « لص وقح » . ، هكذا قرر ماكس مايرهوف . كما سنبين أيضاً أن « اندريا الباجو » لم يكن بأفضل من « قسطنطين الأفريقي » .

تلك بصورة مركزة بعض جوانب المنهج الذي اتبعه الأطباء العرب والمسلمون في أزهى عصور الحضارة الإسلامية ، وسنتابع مسيرتنا لنرى كيف ارتقى علم الطب ابان فترة الأزدهار .

الفصل الرابع

مؤلفات الطب العربي في العالم اللاتيني

مؤلفات الطب العربي في العالم اللاتيني

لقد أفاد العالم اللاتيني في أوربا التي أصابها البوار والركود العلمي لقرون طويلة من الانجازات الإسلامية في مجال الطب والصيدلة ، بصورة لا يمكن للجيل الراهن أن يقدرها تقديراً حقيقياً ؛ ولكن علماء أوربا وقتئذٍ وقفوا على ذخائر ونفائس العلم العربي والإبداع الإسلامي لتلك العقلية الجبارة ، فاستوعبوا التراث الذي وصلهم ، ولكن في فترة زمنية أطول من تلك التي حصّل فيها المسلمون علوم اليونان ، وقد استغرقت عملية الاستيعاب هذه حوالي الخمسة قرون من الزمان ، وبعد أن وقفوا على دقائق الفكر الإسلامي انطلقوا يُنظّرون للفكر من جديد على أسس أكثر دقة ، واستخدموا الأفكار النظرية التي توصلوا إليها في التطبيق العملي في مرحلة متأخرة نسبياً ولكي نوضح عملية انتقال التراث العلمي إلى العالم الأوربي نشير أولاً إلى ما ترجم من الكتابات العربية إلى اللاتينية . وهي اللغة التي سادت أوربا طوال العصور الوسطى . ثم نبين كيف تمت عملية الانتقال من العالم الإسلامي إلى العالم اللاتيني ، أي المعابر .

١ ـ يذكر محمد كامل حسين في مقالته القيمة بعنوان « في الطب والأقربازين » التي دونها في أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ، أن كتاب علي بن العباس المعروف بكتاب كامل الصناعة كان أول كتاب

عربي كبير ترجم إلى اللاتينية[٨٦] ، وأن هذا الكتاب بالإضافة إلى كتاب القانون وكتاب الحاوي لقي عناية فائقة وظلت ترجمته تدرس بجامعات أوربا حتى أواسط القرن السادس عشر على الأقل[٨٧] ، ولهذا يعتبر كتاب «كامل الصناعة» المعروف بالكتاب الملكي من الكتب التي يبدأ بها عهد الطب في أوربا[٨٨] . ويذكر عبد الحليم منتصر في تعليقه على هذا المؤلف : « والمقالتان الأولى والثانية قاصرتان على فصول في التشريح كانت المرجع الرئيسي لعلم التشريح في سالرنو بإيطاليا وفي غيرها في المدة من عام ١٠٧٠ ـ ١١٧٠ م »[٨٩] .

وفي مقالته عن « العلوم والطب » أورد العلامة ماكس مايرهوف فقرة هامة عن علي بن العباس ومؤلفه قائلاً « علي بن العباس المعروف في العالم اللاتيني باسم هالي أباس Haly Abbas (ت ٩٩٤ م) فقد ألف موسوعة ممتازة متقنة سماها كامل الصناعة الطبية وعرفت عند اللاتنيين باسم الكتاب الملكي Liber Regius يعالج شئون الطب العملية والنظرية معاً ، ويبتدىء بفصل من أطرف الفصول وأجلها ، يتضمن نقداً بسيطاً للرسائل الطبية والعربية واليونانية السابقة . وترجم هذا الكتاب مرتين إلى اللاتينية في زمن متقدم[٩٠] . والمعروف أن قسطنطين الافريقي (١٠٢٠ ـ ١٠٨٧ م) هو الذي ترجم كتاب كامل الصناعة[٩١].

٢ ـ ومن الكتابات الهامة ، في مجال الطب ، التي أثرت تأثيراً

---

(٨٦) محمد كامل حسين ، « في الطب والأقربازين » مقالة في أثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ، ص ٢٨٢ .
(٨٧) المرجع السابق، ص ٢٩٢ .
(٨٨) المرجع السابق ، ص ٢٨٩ .
(٨٩) عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ، ص ١٢٩ .
(٩٠) ماكس مايرهوف ، المرجع السابق، ص ٤٧١ .
(٩١) من كامل حسين ، المرجع السابق، ص ٢٨٩ .

بـالغاً على الفكـر العلمي في أوربا كتـاب الـرازي المسمى « الحـاوي » الذي ينظر إليه عادة على أنه أعظم كتب الطب قاطبة حتى نهايـة العصور الحديثة . ويذكر مـاكس مايـرهوف أنـه ترجم على يـد طبيب يهودي من صقلية يدعى فرج بن سالم ـ ويعرف في العالم اللاتيني باسم فـراجوت ـ بأمر من شـارل الأول ، وقد انتهى فـرج هذا من تـرجمة « الحـاوي » في عـام ١٢٧٩ مـيـلاديـة ، وكـانت بعنـوان Liber Dictus Elhavi ، لكن الترجمة لم تنشر إلا في عام ١٤٨٦ . وهناك ترجمة أخرى لاتينيـة بعنوان Continens Rasis صـدرت في البنـدقيـة عـام ١٥٤٢ . يقـول مـاكس مايرهوف « أن أعظم كتب الرازي هذا انتشر في القرون التالية على شكل مخطوطات لا عد لها[٩٢] ثم أخذ يطبع باستمرار ابتداء من السنـة ١٤٨٦ ومـا إن جاءت السنـة ١٥٤٢ حتى كان يـوجـد من هـذا الكتـاب العـظيم النفيس خمس طبعات ، عدا أجـزاء منه كثيـرة طبعت منفصلة . لذا كـان أثـره في الطب الأوربي جـد عظيم »[٩٣] . والجـدير بـالـذكـر أن كتـاب الحـاوي هو الـذي جعل أهـل أوربا من المشتغلين بـالطب ينـظرون إلى الرازي على أنه « أعظم أطباء الطب السريـري (الكلينيكي) في العصور الوسطى . . . وما زال الغربيون يعترفون بفضل الـرازي ويقدرون أثـره ، حتى جامعة برنستون الأمريكية اطلقت اسمـه على أفخم أجنحتها تقـديراً لفضله[٩٤] .

ومن أهم الكتب الـطبيـة التي دونهـا الـرازي وانتقلت إلى أوربـا

---

(٩٢) نسخ مخطوط الحاوي موجودة في أماكن متعـددة مثل مكتبـات المتحف البريـطاني ، وبرنستون ، والموصل، وكيمبردج والاسكوريال وغيرها .

(٩٣) ماكس مايرهوف ، المرجع السابق، ص ٤٦٥ . لكننا نلاحظ هنا أن مايرهوف لم يميز بين تـرجمة فـرج وترجمـة البندقيـة ، وهذا خـطأ . أما بـروكلمان فقـد عرف التمييـز بينهما .

(٩٤) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ص ١٥٢ .

أيضاً ، كتاب الطب المنصوري ، وهو كتاب أصغر من الحاوي ، ولكن قيمته عظيمة ، وكان ، أشهر من الحاوي ، رغم اشتماله على عشرة كتب فقط . ويذكر الدوميلي[٩٥] أن هذا الكتاب ترجم في العصور الوسطى إلى ترجمات لاتينية كثيرة ، وجاءت أول طبعة في عام ١٤٨١ بعنوان Li-ber ad Almansorem . كما يذكر بروكلمان[٩٦] مقالات المنصوري مقالة مقالة ، ويوضح مصدر كل مقالة وما تعتمد عليه من المصادر اليونانية .

وبخلاف هذا ترجمت أعمال أخرى للرازي من العربية إلى اللاتينية أو العبرية أو الفرنسية ، فنجد أن كتاب أقرابازين وهو من مؤلفات الرازي القيمة ، قد عملت له ترجمة عبرية ، وتوجد منه نسخ متعددة مخطوطة في مكتبات متفرقة في العالم . وترجم إلى العبرية أيضاً كتابه المعنون « تقسيم العلل » وهو المعروف في بعض الكتابات باسم « كتاب التقسيم والتشجير». وكذلك نقلت رسالته « في الفصد » إلى العبرية ولها نسخ متعددة .

ويذكر بروكلمان أن كتاب الفصول في الطب للرازي ترجم إلى اللاتينية في عام ١٤٨٩ بعنوان : Aphorismi rasis in Aphor. R. Moysis - Bonon ، كما ترجمت المقالات التالية أيضاً له : مقالة في الحصى في الكلي والمثانة ، وقد نشرت مع ترجمة فرنسية بعنوان : Traité sur le calcul dans les reins et dans la uessie, traduction accompagneé de texte par P. de Roning, leyde, 1896.

وكانت ترجمتها اللاتينية بعنوان Opera parva Abubetri ومقالة أمراض المفاصل De egritudinibus Iuncturarum نشرت بالعبرية ،

(٩٥) الدوميلي ، المرجع السابق ، ص ١٧٥-١٧٦ .
(٩٦) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ - ص ٢٧٧ .

وكذلك مقالة أمراض الأطفال التي نشرت بالعبرية أيضاً ، ومقالـة خواص الأعضاء .

٣ ـ ومن الكتابات الطبية الهامة التي أثرت تأثيراً بالغاً في أوربا فترة العصور الوسطى كتاب القـانون في الـطب لابن سينا الـذي يعتبر جـامعاً لمعـارف الطب في عصـره ، إذ هـو يحتـوي على بحـوث القـدمـاء التي أجراها الأطباء الذين سبقوا ابن سينا . وقد ترجم القانون في القرن الثاني عشـر إلى اللاتينيـة ، والتـرجمـة من عمـل جيـرارد الكـريمـوني . ويـرى مايرهوف[٩٧] أن أهمية هذا الكتاب تتضح من شدة الطلب عليه الأمر الذي جعل طبعاته متتالية ، وكذا ترجماتـه المختلفة التي استمرت حتى القرن السادس عشر . ويـذكر عبـد الحليم منتصر[٩٨] أنـه قد طبعت اجـزاء من التـرجمة عـدة مرات قبـل سنة ١٥٠٠ (ميـلانو ١٤٧٣ ، بـادوا ١٤٧٦ ، ١٤٩٧ ، البنـدقية ١٤٨٣ ، . . . الـخ) وطبعت التـرجمـة طبعـات كـاملة في البندقية (١٥٤٤ ، ١٥٨٢ ، ١٥٩٥ ولوفان ببلجيكـا ١٨٥٨) ونابـولي (١٤٩١ـ ١٤٩٢) . وترجم الكتاب أيضـاً إلى العبريـة ، ولا تزال طبعـاته تتـوالى . ومـع أن معـظم الكتـابـات التي بين أيـدينـا تـذكـر أن جيـرارد الكريموني هو المترجم الأول لكتاب القانون ، إلا أنمنتصر[٩٩] يـذكر أن الذي ترجمه هو Gheradro Gmonesere . ولسنا ندري هـل هناك خـطأ مـطبعي أم أن منتصراً عثـر على طبعة للقـانون تحـمل اسم هـذا المؤلف وهو بكل تأكيد شخص آخر غير جيرارد الكريموني[١٠٠] . وينبغي أن نقرر في نفس الوقت أن هناك تـرجمة لاتينيـة أخرى لكتـاب القانـون من عمل

---

(٩٧) ماكس مايرهوف ، المرجع السابق ، ص ٤٧٢ .
(٩٨) عبد الحليم منتصر ، المرجع السابق ، ص ٢١٦ ، وما بعدها .
(٩٩) المرجع السابق ، ص ٢١٦ .
(١٠٠) ماكس مايرهوف ، المرجع السابق ، ص ٤٧٢ .

أندريا الباجو[١٠١]. وهـذا الشخص هو الـذي نقل وتـرجم بعض كتابـات ابن النفيس إلى اللاتينية أيضاً ، على ما سنذكر بعد قليل .

وقـد عمل ابن النفيس مـوجـزاً على كتـاب القـانـون ، حيث أعـاد ترتيب الكتاب على أربعة أقسام هي :

١ ـ قسم في قواعد أجزاء الطب العلمية والعملية .
٢ ـ قسم في الأدوية والأغذية المفردة والمركبة .
٣ ـ قسم في الأمراض المختصة بعضو دون عضو .
٤ ـ قسم في الأمراض التي لا تختص بعضو دون عضـو وأسبابهـا وعلاماتها ومعالجتها .

لقد حاز كتاب القانون لابن سينا شهـرة غير عـادية في كـل أوربا ، وهذا يفسر لنا مدى تقدير ابن سينا في أوربا، ويـدل على هذا « أن كليـة جـامعة بـاريس تحتفظ حتى اليوم بصـورتين كبيرتين في قـاعتهـا الكبـرى إحداهماللرازي والأخرى لابن سينا»[١٠٢].

٤ ـ أمـا ابن الجزار العـربي المسلم (ت ١٠٠٩ م) فقـد قـام قسـطنطين الأفـريقي بنقل كتـابه « زاد المسـافر » إلـى الـلاتينيـة ، يقـول مـاكس مايـرهوف عن ابن الجـزار : « وكتابـه الأعظم » « زاد المسـافر » تـرجم إلى اللاتينيـة بين الرعيـل الأول من المتـرجمـات بـاسم فيـاتكـوم Viaticum وإلى اليونانيـة باسم ايفـوديا Ephodia وإلى العبـرية . وكـان معروفاً ذائعاً بين أطباء القرون الوسطى لأنه يحتـوي معلومات جيـدة جداً عن الأمراض الباطنية . ولكن مترجمه قسطنطين انتحله وعزاه لنفسـه ولم يضع عليه اسم مؤلفه الحقيقي[١٠٣].

(١٠١) ماكس مايرهوف ، المرجع السابق ، ص ٥٠٢.
(١٠٢) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ .
(١٠٣) ماكس مايرهوف ، المرجع السابق ، ص ٤٦٧ .

٥ ـ أما أبو القاسم الزهراوي (ت ٤٠٤ هـ/ ١٠١٣ م) الذي عرف عند اللاتين باسم أبو لكسيس Abulcasis فقد ترجم مؤلفه «التصريف لمن عجز عن التأليف» بعنوان Medical Vade Mecum، وهو عمل طبي ضخم يحتوي على ثلاثين كتاباً ، وله نسخ متعددة في أنحاء العالم ، وتعد نسخة مخطوط فينيا التي تحمل رقم ١٤٥٨ أتم نسخه ، إذ أن النسخ الأخرى لا تحتوي على الكتاب الثلاثين الخاص بالجراحة . وقد ترجم الكتاب إلى البروفنسية والعبرية أيضاً ، وكان جيرارد الكريموني هو مترجمه إلى اللاتينية حيث صدرت الترجمة اللاتينية في عام ١٥١٩ . ويذكر ماكس مايرهوف « أن رسالة ابي القاسم الجراحية . . . . كان لها تأثير كبير على غيره من المؤلفين العرب وساعدت على الأخص في وضع أسس الجراحة في أوربا . وترجمت إلى اللاتينية والبروفنسية والعبرية في زمن متقدم . وعلق الجراحي الفرنسي العظيم (كي . دي سولياك ١٣٠٠ ـ ١٣٦٨ م) على الترجمة اللاتينية في إحدى مصنفاته »[١٠٤] . ومن الجدير بالذكر أن بعض الباحثين عدد الاستشهادات التي اقتبسها دي سولياك في مؤلفه الأكبر (١٣٦٣ م) من الزهراوي بأكثر من مائتي .

وقد استخرجت مقالات متعددة من هذا الكتاب ، منها مقالات تقاسيم الأمراض ، تفسير الأكيال والأوزان الموجودة في كتب الطب باختلاف الأسماء ، المقالة في عمل اليد ، مقالة في أعمار العقاقير المفردة والمركبة ، رسالة عن أمراض النساء . يقول الزهراوي عن حالة صبي « ولقد رأيت منهم صبياً قد امتلأ رأسه ماء والرأس يعظم في كل يوم حتى لم يطق الصبي يقعد على نفسه لعظم رأسه والرطوبة تتزايد حتى هلك . وهذه الرطوبة إما أن تتجمع بين الجلد والعظم وإما أن تجتمع يحت العظم على الصفاق . والعمل في ذلك إذا كانت الرطوبة

(١٠٤) ماكس مايرهوف ، المرجع السابق ، ص ٤٧٤ .

فيمـا بين الجلد والعـظم وكـان الـورم صغيـراً فينبغي أن يشق في وسط الرأس شقاً واحداً بالعرض ، ويكون طـول الشق نحو عقـدين حتى تسيل الـرطوبـة . فـإذا كـانت الـرطـوبـة أزيـد والـورم أعـظم فـاجعلهـا شقين متقاطعين .

وإذا كانت الرطوبة تحت العظم وعلامتـه أن ترى خيـاطات الـرأس مفتوحة من كل جهة والماء يخفض إذا عصرتـه بيدك إلى داخـل ، وليس يخفى عليك ذلك ، فينبغي أن تشق في وسط الرأس ثلاثة شقوق ، وبعد الشق تخرج الرطوبة كلها ، ثم تسد الشقوق بالخرق والرفـائد ، ثم تـطله من فـوق بالشـراب والزيت إلى اليـوم الخامس ثم تحـل الربـاط وتعالـج الجرح بالفتيل والمراهم . . .

٦ ـ كـذلـك نقـل كتـاب « الكليـات في الـطب » لابن رشـد الى الـلاتينية . يقـول مايـرهوف عن ابن رشـد إنـه « كتب ستـة عشـر كتاباً طبياً » ، اشتهر احدها بترجمته الـلاتينية المسمـاة « الكليات في الـطب » ترجمه ١٢٥٥ م اليهودي البادوي (بـوناكـوزا Bonacosa) باسم الجـامع Colliget وطبع مرات عديدة[١٠٥] . لقد صدرت عن كتاب الكليات عـدة طبعات باللاتينية منهـا : ـ طبعة عـام ١٤٨٢ التي صدرت في البنـدقية ، طبعة استراسبورج ١٥٣٣ . ويقع موضوع كتاب الكليات في سبعـة كتب هي :

الأول : كتاب تشريح الأعضاء .
الثاني : كتاب الصحة .
الثالث : كتاب المرض .
الرابع : كتاب العلامات .
الخامس : كتاب الأدوية والأغذية .

---

(١٠٥) ماكس مايرهوف ، المرجع السابق ، ص ٤٨٧ .

السادس : كتاب حفظ الصحة

السابع : كتاب شفاء الأمراض .

وتبدو أهمية هذا المؤلف جلية واضحة إذا وقفنا على محتويات الكتاب الأول الذي يتحدث عن تشريح الأعضاء كما يلي :

- العظام
- العروق الضوارب وغير الضوارب
- العصب
- الرباطات
- الأوتار
- اللحم
- العضل
- الرأس
- هيئة العين
- هيئة الأنف
- هيئة الأذن
- هيئة اللسان
- هيئة الحلق والفم
- هيئة الصدر والرئة
- هيئة الرئة وقصبتها.
- هيئة القلب
- هيئة المعدة والمريء
- هيئة الأمعاء
- هيئة الكبد
- هيئة الطحال

ـ هيئة المرارة
ـ هيئة الكلي
ـ هيئة المثانة
ـ هيئة مراق البطن
ـ هيئة الانثتين والقضيب
ـ هيئة الشدي
ـ هيئة الرحم

ويمكن لنا أن نذكر ما ورد في بقية الكتب السبعة الأخرى التي يتضمنها كتاب الكليات ، إذ أن المخطوط بين أيدينا ، لكن هذا السرد لن يفيدنا هنا . وإنما نريد أن نذكر الكتب الستة عشر التي أشار إليها ماكس مايرهوف وذكر أنها لابن رشد ولم يكشف عنها ، وهي :

١ ـ كتاب الكليات
٢ ـ شرح الأرجوزة المنسوبة إلى الشيخ الرئيس ابن سينا في الطب .
٣ ـ تلخيص كتاب القوى الطبيعية لجالينوس.
٤ ـ تلخيص كتاب المزاج لجالينوس .
٥ ـ تلخيص كتاب الاسطقسات لجالينوس .
٦ ـ كتاب الحيوان.
٧ ـ تلخيص كتاب العلل والأعراض لجالينوس .
٨ ـ مقالة في الترياق .
٩ ـ مقالة في حميات العفن .
١٠ ـ مسألة في نوائب الحمى
١١ ـ مقالة في المزاج
١٢ ـ مباحثات بين أبي بكر بن طفيل وبين ابن رشد في رسمه

للدواء في كتابه الموسوم بالكليات .

١٣ ـ تلخيص النصف الثاني من حيلة البرء لجالينوس .

١٤ ـ تلخيص أول كتاب الأدوية المفردة لجالينوس

١٥ ـ تلخيص كتاب الحميات لجالينوس .

١٧ ـ تلخيص كتاب التعرف لجالينوس .

لقد وصلت إلينا أسماء هذه الكتابات من خلال عيون الأنباء لابن أبي اصيبعة ، ذلك المؤلف الذي حفظ لنا أسماء الكتب من الضياع .

٧ ـ نقل كتاب ابن زهر (ت ١١٦٢ م) المسمى « المجربات في الطب » إلى اللاتينية بعنوان Panvicius في عام ١٢٨٠ م ، وقد ساعد في إخراج الترجمة يهودي من البندقية . ومن الغريب كما يذكر ماكس مايرهوف أن هذا المؤلف « لم يحظ من العرب بما حظي عند أوربا من نجاح » [١٠٦] .

٨ ـ ويذكر ماكس مايرهوف وهو بصدد الحديث عن ماسويه المارديني وابن وافد : « وكلاهما معروف معرفة جيدة بتراجمهما اللاتينية وقد طبعا معاً في قرابة خمسين طبعة أو أكثر ، وظهرا باللاتينية موسومين بالعنوانين الآتيين (المبادىء العامة والخاصة للطب لموسى الأصغر) وكتاب (العقاقير البسيطة)[١٠٧].

٩ ـ وفي معرض حديثه عن طب العيون ذكر ماكس مايرهوف : « كانت الكحالة فرعاً آخر من فروع الطب بلغ أوجه حوالي ١٠٠٠ م . لقد خلف لنا الكحال المسيحي علي بن عيسى البغدادي المعروف لدى اللاتين باسم جيزو هالي Jesu Haly ، والمسلم عمار الموصلي

(١٠٦) ماكس مايرهوف ، المرجع السابق ، ص ٢٨٦ .

(١٠٧) ماكس مايرهوف ، المرجع السابق ، ص ٤٨٦ .

المعروف باسم كـانا مـوصلي Cana musali ، رسالتين ممتـازتين أضافـا بهمـا إلى معلومات الإغريـق في قسم طب العيـون ، زيـادات وعمليـات جراحية ومـلاحظات شخصيـة عديـدة لا تحصى . ترجمت كلتـاهما إلى الـلاتينيـة وبقيتـا من أحسن الكتب المـدرسيـة في أمـراض العين حتى النصف الأول من القرن الثامن عشر(١٠٨) .

١٠ ـ ويرى ماكس مايرهوف أن أوربا تـدين لابن خاتمـة بمعرفتهـا بمرض الطاعون ، لقد كتب ابن خاتمة « كتاباً عن الطاعون الـذي اجتاح المـرية Almeria في اسبـانيا (١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ م) . هـذا الكتـاب يعـد أعظم وأعمق سائر الكتب التي ألفت عن الطاعـون في أوربا بين القـرنين الرابع عشر والسادس عشر »(١٠٩) .

١١ ـ حين تحدثنا عن كتاب القانون في الطب لابن سينا أشرنا إلى شخصية اندريـا الباجـو ، وأشرنـا أيضاً إلى أن ابن النفيس عمـل موجـزاً على القانون ، وذكرنا أننا سوف نفصل القول حول شخصية أندريا الباجو Andria Alpago الذي ارتبط ذكر اسمه ـ حديثاً ـ بمؤلفنا الـطبيب العربي المسلم النـطاسي عـلاء الـدين علي بن أبي الحـزم بـن النفيس القـرشي الـدمشقي المصري (٦٠٧ ـ ٦٨٧ / ١٢٣٦ ـ ١٢٨٨) . فمـا هي قصـة هذا الارتباط بينهما دون أن يلتقيا؟

لا نكاد نجد من بين الكتابات الأوروبية اللاتينية ، التي ذاعت في عصر ابن النفيس من يذكر شهرة هذا العالم العربي ، أو أن هناك مؤلفات باسمه نقلت إلى الغـرب ، وهذا مـا يستوقف القـارىء والمطالـع لحركـة التـرجمة التي سـادت في العالـم الـلاتيني لكتب التراث والعلوم العـربيـة التي نقلت إلى أوروبا إبـان ذلك . وهذا أمر يدعو للدهشة والعجب .

---

(١٠٨) ماكس مايرهوف ، المرجع السابق ، ص ٢٧٦ .

(١٠٩) ماكس مايرهوف ، المرجع السابق ، ص ٤٨٨ .

ولكن في الـربع الأول من هذا القرن ذهب المصـري محيي الدين التـطاوي إلى ألمانيـا لدراسـة الطب حيث انهـى دراسته هناك . ولحسن الـطالع وبينمـا كان التـطاوي « يقلب المخطوطـات الموجـودة في مكتبة الـدولة عثـر بالصـدفة على المخـطوط رقم: ٦٢٢٤٣ وعنوانـه : «شرح تشريح القانون »[١١٠]. وما أن أطلع التطاوي أستاذه الألماني على كشف ابن النفيس للدورة الـدمويـة الصغرى ، حتى أرسـل الأستاذ إلى العـلامة ماكس مايرهوف الذي كان موجوداً بالقاهـرة ، وقتئذٍ ، بـالأمر ، فكـان أن أرسـل هذا الأخيـر إلى جورج سارتون الذي كـان أعد مـوسـوعتـه عن تـاريخ العلم ، فضمن الملحق مـلاحظة بـذلك . وفي عام ١٩٢٤ تقدم التطاوي برسالته عن« الدورة الدموية تبعاً للقـرشي »وذلـك في جـامعـة فرايبـورج ، وبهـا حصـل على درجـة الدكتوراه .

وهنا لنا وقفة .

من هـو ابن النفيس ؟ وما هي مؤلفـاته وكتـاباتـه ؟ وما صـورته في المؤلفات العربية والأوربية ؟ وما هي اسهاماته العلمية في مجال الطب؟

حتى نعـرف الإجـابـة على كـل هـذه التسـاؤلات علينـا أن نـركـز الحديث حول شخصية ابن النفيس .

---

(١١٠) سلمان قطاية ،ابن النفيس، ص ٦٠.

الفصل الخامس

ابن النفيس
الاشكالية والعبقرية

ابن النفيس
الاشكالية والعبقرية

لو لم أعلم أن تصانيفي تبقى بعدي
عشرة آلاف سنة، ما وضعتها . .
ابن النفيس

بينما كان الظلام يلف أقطار أوربا ، في العصور الوسطى ، كانت أنوار العلم والمعرفة تشرق في ديار المسلمين . . ومن مراكز إشراقات العلم والمعرفة آنذاك ، عاصمتان للعلوم والفنون ، هما القاهرة ودمشق . وبين دمشق والقاهرة ، عاش ابن النفيس .

ابن النفيس :

هو الشيخ الطبيب ، علاء الدين علي بن أبي الحزم[١١١] القرشي[١١٢] الدمشقي[١١٣] المصري[١١٤] الشافعي[١١٥] ، المعروف بابن النفيس الحكيم ، صاحب التصانيف الفائقة في علم الطب[١١٦] . . هكذا ذكرت المصادر التاريخية اسم عالمنا وألقابه ، وإن

---

(١١١) ابن كثير؛ البداية والنهاية، الجزء الثالث عشر، ص ٣١٣ .
(١١٢) ابن العماد؛ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الجزء الخامس ، ص ٤٠١ .
(١١٣) ابن تغرى بردى؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء السابع ، ص ٣٧٧ .
(١١٤) السبكي ؛ طبقات الشافعية الكبرى، الجزء الخامس ، ص ١٢٩ .
(١١٥) عمر كحالة؛ معجم المؤلفين، الجزء السابع، ص ٥٨ .
(١١٦) طاش كبرى زاده؛ مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، الجزء الأول ، ص ٣٢٩ .

كـان بعض هذه المصـادر يقول إنـه (ابن أبي الحرم) كمـا في «البداية والنهاية» . «وشذرات الذهب» ، و«طبقـات الشافعيـة الكبرى» . ويبـدو أن نقـطة سقطت من إحـدى المخطوطـات ، فتنـاقل الخـطأ بعض النسـاخ والمؤرخين . وقـد ناقش بـول غليونجي هـذه النقطة ، في كتـابه عن ابن النفيس[117] .

أما لقب (القرشي) فهـو نسبة إلى القـرش ـ بفتحتين ـ وهي قريـة قرب الشام ، وذلك ما ذكره ابن أبي أصيبعة في كتـابه (عيـون الأنباء في طبقـات الأطباء) عنـد ترجمتـه لابن النفيس ، وهي تلك التـرجمـة التي سقطت من النسخة المطبوعة لهذا الكتاب ، لكنه عثر عليها في مخطوطة بـالظاهـرية[118] ، بعد أن ساد الاعتقـاد طويـلاً بأن ابن أبي أصيبعـة لم يترجم لابن النفيس ، وهو اعتقاد مشوب بـالتعجب نظراً لـزمالـة الرجلين ومعاصرة كل منهما للآخر ، حتى أن قـرائح المستشـرقين انتجت قصصاً حول معاداة الرجلين لبعضهما[119]، قصصاً ما لبثت هـذه المخطوطـة أن أظهرت تهافتها وبطلانها .

عاش ابن النفيس الشطر الأول من حياته بـدمشق ـ التي يرجـح أنه ولد بها سنـة ٦٠٧ هـ تقريبـاً ـ ودرس الطب على يـد رئيس الأطباء بـديار مصر والشام ، عبد الرحمن بن علي ، المعروف بمهذب الدين الدَخـوَّار (تـوفي ٦٢٨ هـ) حيث كان الـدَخّوار آنـذاك يعمل بـالبيمارستـان النوري

---

(١١٧) بول غليونجي ؛ ابن النفيس ، ص ٧٦ .

(١١٨) انـظر صورة (فـوتوغـرافية) لتـرجمة ابن النفيس في هـذه المخطوطـة ، في مقدمـة فهرس مخطوطات الظاهرة للدكتور/ سامي حمارنة .

(١١٩) من المستشرقين الذين ابتدعوا حكـاية الـوقيعة بين ابن النفيس وابن أبي أصيبعـة ، المستشـرق ماكس مـايرهـوف . . (انظر : بـول غليـونجي ، ابن النفيس ، ص ٧٢ ـ ٧٥) .

بدمشق[١٢٠] . كما تتلمذ أيضاً على يد عمران الإسرائيلي ، زميل مهذب الدين الدَخَّوار في البيمارستان النوري (توفي ٦٣٧ هـ) وغيرهما من أطباء الشام آنذاك . وما لبث ابن النفيس أن رحل من الشام إلى مصر ، فاستقر بالقاهرة وعمل بأكبر مستشفياتها (البيمارستان الناصري) ثم تولى رئاسة البيمارستان المنصوري الذي بناه الملك المنصور سيف الدين قلاوون . وفي القاهرة ، نال ابن النفيس شهرة عظيمة كطبيب ، حتى أن بعض المؤرخين يذكرون أنه : لَمْ يكن في الطب على وجهِ الأرضِ مثله ، ولاَ جاء بَعْد ابن سينا مثله ، وَكَان فِي العِلاجِ أعظمَ مِنَ ابن سينا[١٢١] .

وبلغ ابن النفيس من العمر قرابة الثمانين عاماً سنة ، عاصر خلالها أحداثاً كبرى في التاريخ الإسلامي ، مثل نزول الفرنجة في دمياط وصدهم في فارسكور واعتقال لويس التاسع في المنصورة ، وهجوم هولاكو على بغداد وهدمها سنة ٦٥٦ هـ ، وهزيمة التتار في حلب وفتح تلك المدينة سنة ٦٧٦ هـ ، ورد هجوم ملك النوبة على أسوان سنة ٦٧٤ هـ ، والوباء الذي فتك بأهل مصر سنة ٦٧١ هـ ، وأحداث نزاع المماليك على الحكم . كما قرأ ابن النفيس تلك الصفحات الملطخة بالدماء التي كتبتها شجرة الدر والظاهر بيبرس وغيرهما[١٢٢]. وتوفي ابن النفيس يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٧ هـ بالقاهرة ، بعد مرض دام ستة أيام . وقد أشار عليه بعض زملائه الأطباء

---

(١٢٠) تتلمذ على يد الدخوّار العديد من مشاهير الأطباء ، فإلى جانب ابن النفيس نجد ابن أبي أصيبعة وبدر الدين مظفر بن قاضي بعلبك . . وقد جمع هذا الأخير شرح استاذه على كتاب تقدمة المعرفة لابقراط (انظر : شرح الدخوار على تقدمة المعرفة مخطوط الاسكندرية رقم ٣٤٢٠ ح / طب ، الورقة الثانية).

(١٢١) انظر ، شذرات الذهب ٥/ ٤٠٢ ـ مفتاح السعادة ١/ ٣٢٩ ـ طبقات الشافعية ٥/ ١٢٩ .

(١٢٢) بول غليونجي ، ابن النفيس ، ص ٩٣.

في مـرضه الـذي توفي بـه بأن عـلاجه يستلزم تنـاول شيء من الخمـر ، فرفض ، وقال : لا ألقى الله تعالى وفي باطني شيء من الخمر . وهكذا كان ابن النفيس مسلماً قبل كونه طبيباً ، وهكذا كان الإسـلام وراء سلوك هؤلاء العلماء . وذلك ما نقوله للدكتور بول غليونجي الذي كرر في كتابه عن ابن النفيس ، أن تقدم الطب عند المسلمين كان نتيجـة لفصل العلم عن الدين .

وترك ابن النفيس مالاً كثيراً ؛ لكنه أوقف ماله وداره وأملاكه وجميع مـا يتعلق به ، على البيمـارستان المنصـوري بـالقـاهـرة . ويقـول بعض معاصريه في رثائه :

ومُسائِلي ، هَلْ عَالم أو فاضـل   أو ذو محـل ٍ في العُلى بعد العَـلا
فَأَجَبْتُ والنيرانُ تَضْرِمُ فِي الحَشَا: أَقْصِرْ فَمُذْ مَاتَ العَلا[١٢٣] ماتَ العُلا

ظلت ذكرى ابن النفيس حية بعد وفاته بقرون ، وتناقل المؤرخـون وأصحـاب طبقـات الـرجـال تـرجمتـه ، متحـدثين بفضله وعلو مكـانتـه العلمية ، كما ذكر المفهرسون لتراث المسلمين مؤلفاته التي لاقت عنـاية الشراح .

لكن الربع الثاني من القرن العشرين ، شهد اهتماماً واسـع النطاق بابن النفيس وجهوده العلمية ، فكتبت المقالات والدراسات المـطولة عن هـذا العالم المسلم ، وطـال الأخـذ والـرد حـولـه من قبـل المستشـرقين والعرب ومؤرخي العلم في كل مكان . وكان ذلك كله على أثر اكتشـاف مـدهش قام بـه طبيب مصري ـ ولـد بالغـربية ١٨٩٦ ، وتـوفي بالقـاهـرة ١٩٤٥ ـ هـو الدكتـور محيي الدين التـطاوي ، الذي كـان يدرس الـطب في ألمانيا في العشرينات من هذا القرن .

---

(١٢٣) يريد : علاء الـدين ابن النفيس .

في برلين ، عثر الدكتور التطاوي على مخطوط لابن النفيس في مكتبة المخطوطات العربية الموجودة هناك ، وهذا المخطوط هو نسخة من كتاب (شرح تشريح القانون) الذي يشرح فيه ابن النفيس الأجزاء الخاصة بالتشريح في كتاب ابن سينا المشهور : القانون في الطب .

وعكف الدكتور التطاوي على دراسة الجزء الخاص بالقلب في كتاب ابن النفيس ، وقدم نتيجة دراسته في رسالته للدكتوراه[١٢٤]. تلك النتيجة التي أدهشت أساتذته هناك ، وأدهشت المستشرقين في كل مكان ، وهي أن ابن النفيس ، هو : أول من اكتشف الدورة الدموية .

وسطع نجم ابن النفيس مرة أخرى ، وتخصص بعض المستشرقين - مثل ماكس مايرهوف - في دراسته[١٢٥] ، وشعرنا نحن بالزهو والفخر بابن النفيس . ولكن ، هل قمنا بدراسة مؤلفاته ؟ وهل نفضنا التراب عن تراثه الأسير في المخطوطات القديمة المتآكلة الحروف ؟

مؤلفات ابن النفيس :

من الأمور المثيرة ، أن ابن النفيس لم يقتصر في اهتماماته العلمية على الطب وحده ، بل شارك - ووضع المؤلفات - في فنون ومعارف

---

(١٢٤) تقدم الدكتور التطاوي بهذه الرسالة إلى كلية الطب بجامعة فرايبورج، بعنوان (الدورة الرئوية تبعاً للقرشي (Der Lungenkeislauf nach el Koraschi) سنة ١٩٢٤.

(١٢٥) انظر من مؤلفات ماكس مايرهوف عن ابن النفيس واكتشافه للدورة الدموية الرئوية

— Ibn an - Nafis und Seine Theorie des Lungenkrislaufs (Quelless u Studien Z 1935).

— Ibn an – Nafis and his theory of the Lesser - circulaltion (Isis XXII, 1935).

— La decouverte de la circulation pulmonaire par Ibn an - Nafis.

متنوعة . وإن نظرة إلى قائمة مؤلفات ابن النفيس ، لتدل دلالة واضحة على عبقرية هذا الرجل الذي جمع بين رئاسة الأطباء وتدريس الفقه الشافعي في المدرسة المسرورية ، وكان إذا أراد الكتابة في علم من العلوم : « توضع له الأقلام مبريّة ، ويدير وجهه إلى الحائط ، ويأخذ في التصنيف إملاءً من خاطره ، ويكتب مثل السيل إذا (انحدر) فإذا كلَّ القلم وحفى رمى به وتناول غيره لئلا يضيع عليه الزمان في بري القلم»[١٢٦] .

ولنلق الآن نظرة على تآليف ابن النفيس التي روى أنه قال عنها : لو لم أعلم أنها تبقى بعدي عشرة آلاف سنة ، ما وضعتها[١٢٧] . وسوف نشير في هذه القائمة من المؤلفات ، إلى المصادر التي اعتمدنا عليها في كتابة القائمة ، وإلى النسخ المخطوطة المعروفة لنا من كل مؤلف ، وهذه المؤلفات هي :

١ ـ الشامل :

وهو كتاب موسوعي في الطب ، يشبه موسوعة (الحاوي) لأبي بكر الرازي . تقول المراجع إن هذا الكتاب تدل فهرسته على أنه يقع في ٣٠٠ مجلداً ، بيَّض منها ابن النفيس ثمانين مجلدة[١٢٨] . وذكر العمري في (مسالك الأبصار) أن الثمانين مجلداً التي انتهى منها ابن النفيس، توجد بالبيمارستان المنصوري بالقاهرة ، إلا أن مايرهوف يقول إن الكتاب غير موجود في أية مجموعة شرقية ونعرف من مخطوطات الكتاب :

---

(١٢٦) مسالك الأبصار ، للعمري (مخطوط) ملحق بكتاب ابن النفيس لبول غليونجي ص ١٨٨ .

(١٢٧) المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

(١٢٨) انظر : طبقات الشافعية ٥/ ١٢٩ ـ شذرات الذهب ٥/ ٤٠١ ـ مفتاح السعادة ١ / ٣٢٩ .

ـ نسخة بمتحف الآثار العامة ببغداد ، برقم ١٢٧١[١٢٩].

ـ نسخة بدار الكتب بالقاهرة (جزء مصور بالتصوير الشمسي) برقم ٤٢٣ طب/ تيمور .

ـ نسخة بمكتبة لاين الطبية بجامعة ستانفورد في كاليفورنيا (ثلاثة مجلدات كتبت سنة ٦٤١ هـ ، على المؤلف) برقم ٢٧٦[١٣٠].

ـ عدة نسخ بمكة البودليان بأكسفورد ، تحتوي كل نسخة على عدد من مجلدات الكتاب ، بأرقام ٢٤٨/ ٢٩٠/ ٢٩١/ ٢٩٢/ ٥٣٦/ ٥٣٩/ Pococke[١٣١].

ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً .

٢ ـ الموجز :

من أشهر كتب ابن النفيس الطبية ، يقول عنه حاجي خليفة : هو موجز في الصورة، لكنه كامل في الصناعة[١٣٢] وهذا الكتاب أراد فيه ابن النفيس أن يوجز ما ذكره ابن سينا في كتاب (القانون) لكنه لم يتعرض فيه لموضوعات التشريح ، التي أفرد لها كتاباً آخر وتوجد من هذا الكتاب عشرات النسخ المخطوطة في مكتبات العالم ، وفي دار الكتب المصرية وحدها توجد ١٣ مخطوطة للكتاب ، كتبت في تواريخ مختلفة ، ولهذا الكتاب شروح ، منها :

١ ـ شرح أبو اسحاق إبراهيم بن محمد الحكيم السويدي ، المتوفى ٦٩٠ هـ.

---

(١٢٩) راجع ما كتبه د/ صلاح المنجد في مجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد الخامس / الجزء الثاني) ص ٢٧٠ .

(١٣٠) قدم الدكتور نقولا هير وصفاً لهذه النسخة في مجلة معهد المخطوطات العربية (الجزء السادس / مايو ١٩٦٠).

(١٣١) Brockelmann: Giescheishte der Arabishen Letiratur (Supp.) Leiden 1937 - 1° 900 - 15.

(١٣٢) كشف الظنون ٢ / ٥٦٧ .

٢ ـ شرح سديد الدين الكازروني ، المتوفى ٧٤٥ هـ.
٣ ـ شرح جمال الدين الأقصرائي ، المتـوفـى ٧٧٩ هـ.
٤ ـ شرح نفيس بن عوض الكرماني ، المتوفى ٨٥٣ هـ.
٥ ـ شرح محمود ين أحمد الأمشـاطي، المتوفى ٩٠٢.
٦ ـ شرح أحمد بن إبراهيم الحلبي ، المتوفى ٩٧١.
٧ ـ شرح قطب الدين الشيرازي (؟).
٨ ـ شرح محمد الإيجي البـليلي (؟).

وطبـع الكتـاب (طبعـة حجـر رديئـة) بـدلهي سنـة ١٣٣٢ هـ ، بعنـوان : الموجـز المحشي ، كمـا طبـع شـرح الاقصـرائي بلكنئـو سنـة ١٢٩٤ هـ، بعنوان : حل الموجز . وطبـع شرح نفيس بن عـوض بالهنـد سنـة ١٣٢٨ هـ ، مع حـاشية لمحمـد بن عبد الحليم اللكنـوي المتوفي ١٢٨٥ هـ . ونقـل الكتاب للغـة التركيـة مرتين ، قـام بإحـداهمـا مصلح الـدين بن شعبان المعـروف بسروري (تـوفي ٨٦٩ هـ) وقـام بـالتـرجمـة الأخرى أحمد بن كمـال الطبيب بـدار الشفاء بـأدرنه . وتـرجم إلى اللغة العبـرية بعنـوان (سِفِـر هَمُّـوجَـز) وإلى الانجليزيـة بعنـوان (المعنى في شرح الموجز).

٣ ـ المهـذّب:

وهو كتاب في الكحالة (طب العيون) وتوجـد منـه نسـخ بعنوان : المهـذَّب في الكحـل المُجـرَّب ، ونسـخ بعنـوان : المهـذب في طب العيون . ويقال إن الكتاب حاز في زمانه شهرة واسعة ، ولذا ذكرته معظم المصادر[١٣٣] . ومن مخطوطات الكتاب :

ـ نسخة بدار الكتب المصرية، برقم ٤٠٥ طب/ تيمور .
ـ نسخة بدار الكتب المصرية ، برقم ١٨٤٤ طب .

(١٣٣) انظر : النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧٧ ـ بول غليونجي ، ابن النفيس ، ص ١٠٠، ١٠١.

ـ نسخة بالفاتيكان، برقم ١٣٠٧[١٣٤].

ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً .

٤ ـ شرح كليات القانون:

وهو شرح لكليات كتاب القانون لابن سينـا ، يقول ابن النفيس في مقـدمته : « فـإن قصدنـا الآن إيراد مـا تيسر لنـا من المباحث على كـلام الشيخ الرئيس أبي علي بن سيناء » وتوجد مخطوطاته :

ـ نسخة ضمن مجموعة برقم ٢٦١٢٨ / جامعة القاهرة[١٣٥].

ـ نسخـة (ناقصـة من أولها) بـدار الكتب المصريـة، بـرقم ١٣٩٥ (ميكروفيلم ٣١٣٩٤).

ـ نسخـة بدار الكتب المصـرية ، بـرقم ١٨٥٠/ طب (ميكروفيلم ٣١٣٠٧) .

ـ نسخة أخرى بدار الكتب المصرية ، بالـرقم السابق (ميكـروفيلم ١٨٦٧٤).

ـ نسخة بأكاديمية طب نيويورك[١٣٦].

وتوجد تـرجمة لجـزء من الكتاب للغـة اللاتينيـة ، قام بهـا الطبيب الإيـطالي (ألباجـو) الذي يعتبـر حلقة الـوصل بين ابن النفيس والأطبـاء الأوربيين . ولا يزال الكتاب مخطوطاً .

٥ ـ شرح مفردات القانون:

كتاب غير معروف تماماً لابن النفيس ، أشار بـروكلمان إلى وجـود

---

(١٣٤) Brockelmann (Supp.) 1, 900 - 12

(١٣٥) تحمـل المجمـوعـة على الغـلاف إشـارة إلى أنهـا (من كتب مـاكس مـايـرهـوف) وهي مكتوبة بخط فارسي بقلم عبد الحسين اصفهاني ، بتاريخ ١٢٥٠ هـ.

(١٣٦) يذكر بول غليونجي أنه شاهد بنفسه هذه النسخة (ابن النفيس ص ١٠٢).

نسخة فريدة منه بمكتبة آيا صوفيا بتركيا ، برقم ٣٦٥٩[١٣٧].

٦ - شرح تشريح القانون :

وهو الكتاب الذي أشرنا إليه منذ قليل والذي سجل فيه ابن النفيس اكتشافه للدورة الدموية الرئوية ، قبل ظهور كتاب وليم هارفي (دراسة تشريحية تحليلية لحركة القلب والدم في الحيوان) - الذي ظهر سنة ١٦٢٨ محدثاً ضجة في الأوساط العلمية - بمئات الأعوام . وتوجد عدة مخطوطات للكتاب ، منها :

- نسخة بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، برقم ٣١٤٥ (الرقم الجديد ٥٩ طب).

- نسخة بآيا صوفيا باستانبول، برقم ٤١٩٩ .

- نسخة برلين رقم ٦٢٢٤٣ ، التي اعتمد عليها د/ التطاوي، ولا يزال هذا الكتاب - مثل سائر كتب ابن النفيس - مخطوطاً .

٧ - تفاسير العلل وأسباب الأمراض:

انفرد بروكلمان بذكر هذا المؤلف لابن النفيس ، معتمداً على وجود نسخة خطية منه[١٣٨].

٨ - المختار من الأغذية :

وهو كتاب يعني بالغذاء في الأمراض الحادة - مر علينا كتاب لابقراط في نفس الموضوع - ذكره بول غليونجي اعتماداً على ما أورده (الواردت) من وجود مخطوطة منه ببرلين . .

٩ - بغية الطالبين وحجة المتطببين :

---

(١٣٧) Brockelmann (Supp.) 1, 900 - 11

(١٣٨) ذكر ذلك بول غليونجي ، ابن النفيس ص ١٠٤ ، وبالرجوع إلى بروكلمان (طبعة ليدن ١٩٣٧) لم نجد ذكراً لهذا المؤلف .

أورده عمر كحاله[139]، ولم نقع على ذكر لأية مخطوطات من هذا الكتاب .

١٠ ـ مقالة في النبض:

يقول العمري ـ وغيره من المؤرخين ـ إن ابن النفيس كان مرّة في (الحمام) الموجود بباب الزهومة ، وبينما هو يغتسل ، خرج وطلب دواة وأوراق ، وأخذ في تصنيف مقالة في النبض إلى أن أنهاها ، ثم عاد ودخل الحمام وأكمل اغتساله .

وتعد هذه المقالة في حكم المفقود . .

١١ ـ شرح مسائل حنين بن اسحاق:

وهو شرح لكتاب حنين بن اسحاق العبادي (مسائل في الطب للمتعلمين) الذي تناوله بالشرح عدد من الأطباء ، منهم ابن أبي صادق النيسابوري وابن النفيس . . وتوجد من مخطوطات شرح ابن النفيس :

ـ نسخة ببرلين ، برقم ١٠٤٠ .

ـ نسخة بليدن ، برقم ١٣٠٤[140] .

١٢ ـ شرح كتاب أبيديميا:

وهو شرح وضعه ابن النفيس على كتاب الأوبئة (أبيديميا) لابقراط . وتوجد له عدة نسخ مخطوطة منها :

ـ نسخة بدار الكتب بالقاهرة ، برقم ٥٨٣ طب/ طلعت.

ـ نسخة بآيا صوفيا، برقم ٣٦٤٢/ أ.

وعنوان الكتاب عند بروكلمان ، شرح أبيديميا لبقراط وتفسير

---

(١٣٩) عمر كحالة ، مُعجم المؤلفين ، الجزء السابع ص ٥٨ .

(١٤٠) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، (الترجمة العربية) ٤/ ١٠٦ ـ وانظر الأصل الألماني (الجزء الأول، ص ٩٠٠).

المرض الوافد ، وذلك اعتماداً منه على (ريتر) ونسخة آيا صوفيا ، أما نسخة القاهرة فقد وجدناها بعنوان : شرح كتاب أبيديميا .

١٣ ـ شرح تقدمة المعرفة :

وهو شرح على كتاب (تقدمة المعرفة) الذي يبدأه ابقراط بقوله : « إني أرى أن يستعمل الطبيب سابق النظر »[١٤١] . . ويظهر في شرح ابن النفيس أسلوبه العلمي ومنهجيته ، فهو يبدأ في شرح هذه الفقرة بقوله : « النظر يقال على معاني ، المشهور منها ستة . أحدها تأمل الشيء بالعين ، وثانيها الانتظار ، وثالثها المقابلة فيقال دور مناظرة أي متقابلة ، ورابعها العناية يقال نظر الله إلى فلان أي اعتنى به . وخامسها الفكر والروية . وسادسها العلم»[١٤٢] .

وسبقت الإشارة إلى أننا نُعِدُ تحقيقاً لهذا المخطوط .

١٤ ـ شرح تشريح جالينوس :

توجد نسخة من هذا الكتاب بآيا صوفيا (برقم ٣٦٦١) إلا أن نسبة هذا الشرح لابن النفيس ليست أكيدة . ومن المعروف أن ابن النفيس لم يكن يستحسن كلام جالينوس كثيراً ، في حين كان يقدر ابقراط تقديراً عميقاً . ومع ذلك ، فإن التحقق من نسبة الكتاب لابن النفيس ينبغي أن تكون بعد دراسة لهذا الشرح ، ومقارنته بشروح ابن النفيس على مؤلفات ابقراط وابن سينا .

١٥ ـ الرسالة الكاملية :

كتاب لابن النفيس في السيرة ، عنوانه كاملاً (الرسالة الكاملية في

---

(١٤١) انظر ما ذكرناه عن هذا المؤلف الأبقراطي فيماسبق .

(١٤٢) ابن النفيس، شرح تقدمة المعرفة (مخطوط بالإسكندرية) ورقة ٢ أ.

السيرة النبوية) وقد أشارت بعض المصادر إلى هذا الكتاب ، وذكر بروكلمان أن له نسخة مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة[١٤٣].

وهذا الكتاب تعرض لبعض اللبس في الفهم ، إذ اعتقد أنه يختلف عن عنوان آخر ذكر في بعض المراجع باسم «فاضل بن ناطق» ، ولكن هذا غير صحيح . إذ إن ابن النفيس كتب الرسالة الكاملية أساساً ليعارض بها رسالة ابن سينا المسماة (حي بن يقظان) وكذا ابن طفيل . وقد ذكر العمري في ترجمته لابن النفيس أنه « انتصر في هذا الكتاب لمذهب أهل الإسلام وآرائهم في النبوات والشرائع والبعث الجسماني وخراب العالم »[١٤٤] . . . وأبدع فيه ودل على تمكنه من العلوم العقلية .

ويبدو أن بروكلمان وقع في ذات الخطأ وفهم أن « الرسالة الكاملية » مؤلف قائم بذاته ومختلف عن « فاضل بن ناطق » الذي يعتبره مؤلفاً آخر . إلا أن يوسف شاخت وماكس ما يرهوف كرسّا وقتاً كافياً لدراسة « الرسالة الكاملية » وصدرت طبعة أولى بمقدمة المحققين عربية انجليزية ، ثم صدرت طبعة أخرى أصدرها يوسف شاخت وقدم لها بمقدمة انجليزية رائعة وتحمل عنوان « الرسالة الكاملية في السيرة النبوية »، وفيها ينوه المحققان إلى أن « الرسالة الكاملية » هي ذاتها « فاضل بن ناطق » . لذا أردنا التنويه والإشارة إلى الخطأ الذي وقعت فيه بعض الكتابات حول هذا المؤلف .

---

(١٤٣) Brockelmann (Supp.) 1, 900- 10

(١٤٤) جدير بالذكر أن رسالة «حي بن يقظان» قصد بها مؤلفها أنه يمكن للإنسان أن يصل إلى الله وإلى الحق ، عن طريق التأمل الفلسفي . وذلك بطريق الحكاية عن رجل عاش حياته في جزيرة نائية منذ ولادته وحتى بلغ الأربعين ، ووصل إلى المعاني الشرعية اعتماداً على تأملاته فحسب . . وقد استغل دانييل ديفو هذه الفكرة في روايته المشهورة « روبنسن كروزو ».

١٦ ـ **طريق الفصاحة** : وهو كتاب في النحو ، ومن المعروف أن ابن النفيس كتب في اللغة وعلم البيان ، حتى أن بعض معاصريه انتقدوا تأليفه في علوم اللغة دون أن يتمكن منها ، لكن عالماً لغوياً معاصراً لابن النفيس ، هو ابن النحاس نجده يقول : « لا أرضى بكلام أحد بالقاهرة في النحو ، غير كلام ابن النفيس ». ولا نعرف للكتاب نسخاً مخطوطة أو طبعات .

١٧ ـ شرح التنبيه :

كان ابن النفيس من أعلام فقهاء الشافعية في عصره، وكان يقوم بتدريس الفقه في المدرسة المسرورية ، واعتبره تقي الدين السبكي ضمن كبار الشافعية الذين ترجم لهم في كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) فأورد ترجمته ، وأثنى عليه[١٤٥] .

وهذا الكتاب شرح وضعه ابن النفيس على كتاب أبي اسحاق إبراهيم الشيرازي (التنبيه) في فروع الفقه الشافعي . والكتاب معروف ، ونسبته إلى ابن النفيس ثابتة . . . ولكن مخطوطاته مفقودة .

١٨ ـ شرح الهداية :

وهو شرح على كتاب ابن سينا (الهداية) في المنطق ، وكلٌ من كتاب ابن سينا وشرح ابن النفيس ، مذكور في المصادر التاريخية ، وكلاهما مفقود .

١٩ ـ شرح الإشارات :

وهو شرح على كتاب ابن سينا الشهير (الإشارات والتنبيهات) وهو كتاب في الفلسفة والمنطق والتصوف ، وتوجد عدة طبعات لكتاب

---

(١٤٥) انظر ترجمة ابن النفيس في الجزء الخامس من طبقات الشافعية ، ص ١٢٩ .

الإشارات ، كما توجد عـدة شروح وتعليقـات عليه أمـا شرح ابن النفيس فلم يعرف بعد .

٢٠ ـ ثمار المسائل:

ذكـر ابن أبي أصيبعـة هـذا المؤلف لابن النفيس ، وربمـا كـان الكتـاب هو شـرح ابن النفيس على مسائـل حنين بن اسحـاق ، لكننـا لا نعرف ذلك يقيناً ، إذ لم يحفظ لنا الـزمان نسخـة من مؤلفات ابن النفيس بهذا العنوان .

٢١ ـ مواليد الثلاثة:

انفرد ابن أبي أصيبعة بذكره[١٤٦].

٢٢ ـ كتاب النبات مع الأدوية المفردة:

ذكره ابن أبي أصيبعة ، وقـد مر علينـا كتـاب لابن النفيس بعنوان : المختار من الأغذية .

٢٣ ـ جامع الدقـائق في الطب:

هكذا في ترجمة ابن النفيس في عيون الأنباء[١٤٧] .

٢٤ ـ رسالة في أوجاع الأطفال:

وهي آخـر ما أورده ابن أبي أصيبعـة من مؤلفـات ابن النفيس . . . مـع ملاحظة أن هذه الرسالة ، بالإضافة إلى المؤلفات الأربعة السابقة ، لا توجد منها نسخ خطية معروفة في الوقت الحالي .

---

(١٤٦) مخطوط عيون الأنباء لابن أبي أصيبعه ، الموجود بالظاهرية (الورقة الأخيرة) .

(١٤٧) المرجع السابق .

انتقل خبر اكتشاف التطاوي الجديد بين المستشرقين في العالم ، ونحن نعلم أن حركة الاستشراق والتنقيب في التراث العربي ازدادت بصورة كبيرة في بداية هذا القرن، وقد وجه ماكس مايرهوف وبرجستراسر وشاخت وبوزورث اهتماماً بالغاً لكل كنوز العلم العربي، فكان أن اهتم مايرهوف بدراسة ابن النفيس ، كما درس حنين ابن اسحق ، واهتم شاخت وبوزورث بالمسألة أيضاً ، وكتب شاخت عن « ابن النفيس وسرفيتوس وكولومبو » في عام ١٩٥٧ بصورة أكثر دقة وأكثر تخصصاً، ونشر مايرهوف وجوزيف شاخت « الرسالة الكاملية » لابن النفيس نشرة أولى ، وبعد أن قضى مايرهوف قام « شاخت » مرة أخرى بنشر « الرسالة الكاملية » وزودها بمقدمة انجليزية حول عصر ابن النفيس وثبت بمؤلفاته وأماكن تواجدها بالعالم . ومع كل هذا الاهتمام ، لا نكاد نجد أي ذكر لأفضلية الرجل أو أحقيته بين هؤلاء الذين درسوه وربما كان ذلك من قبيل الإجحاف واستكثار الحقوق المشروعة على هذه الأمة ، حتى في العلم .

والواقع أن الدكتور بول غليونجي في كتابه « ابن النفيس » الصادر في عام ١٩٨٣ ، اهتم بتتبع المسألة وإلقاء الضوء عليها بصورة طبية ، وحاول ربط جوانب الموضوع من الناحية التاريخية المنطقية ، وكذلك فعل طبيبنا العربي الدكتور سلمان قطاية الذي أصدر مؤلفاً قيماً عن ابن النفيس في عام ١٩٨٤ ، وحاول فيه أن يضع الأمور في نصابها بعد تتبع تاريخي جاد ومترابط منطقياً وفلسفياً . ولست أحسب أي محاولة لتتبع المسألة كان من الممكن أن تكون أفضل مما دونه الأستاذان الفاضلان.

ومع ذلك أحسب أن لدينا القدرة المنطقية أيضاً لاستخدام منهج

النقد الداخلي السلبي للنصوص التي بين أيدينا لنستخرج منها ما هو جديد ، من حيث النتائج ، تاريخياً .

١ ـ يذكر ماكس مايرهوف في «العلم والطب» الملاحظة التالية : « لقد استشار المسلمون تراجم ممتازة لكتب ابقراط وجالينوس وأحسنوا فهمها . . . واتقنوا ترجمتها بفضل عباقرة العلماء وفطاحلهم أمثال حنين ، ولكن إضافات الأطباء المسلمين عليها كادت تقتصر على نواحي المعالجة والتشخيص والوصف المجرب . وهكذا بقيت النظريات والأفكار اليونانية غير مطعون فيها ، لكنها صينت وحفظت . . . علينا أن نذكر بأن المسلمين لم يكن يسمح لهم بتشريح جسم الإنسان وجسم الحيوان مطلقاً ، ولذلك كانت التجربة في الطب ممنوعة فعلاً ، لذلك لم يكن بالمستطاع تصحيح أي غلط تشريحي أو فلسجي وقع فيه جالينوس »[١٤٨] .

٢ ـ ويذكر مايرهوف أيضاً في ذات المقال ، الملاحظة التالية : « وأننا لنجد ذكر اندريا الباكو البلوني بإيطاليا (ت ١٥٢٠ م) ضرورياً بوصفه أحد مشاهير مترجمي كتب ابن سينا (القانون) و(النفس) و(تقدمة المعرفة) ، وأثار صغيرة لابن رشد ويوحنا بن سيرابيون ومعجم الأطباء الذي كتبه ابن القفطي[١٤٩] .

٣ ـ يذكر الدوميلي في مؤلفه « العلم عند العرب » الفقرة التالية : « وأخيراً نخص بالذكر : علاء الدين أبا الحزم بن النفيس القرشي المصري الشافعي (نحو ١٢١٠ ـ ١٢٨٨ م) لا سيما وقد اكتشفنا حديثاً في كتبه وصفاً للدورة الدموية الصغيرة تشبه شبهاً غريباً (حتى لتشبه كلمة

---

(١٤٨) ماكس مايرهوف ، العلم والطب ، ص ٤٩٣ .
(١٤٩) المرجع السابق ، ص ٥٠١ ـ ص ٥٠٢ .

كلمة) الوصف الذي ذكره سرفيتو Serveto في القرن السادس عشر في كتابه Christianismi Restituio . وينبغي أن نستخلص من ذلك أن هذا الطبيب العربي ، الذي لم يستطع ولم يرد (كما قال ذلك صراحة) أن يزاول التشريح ، قد استطاع أن يكشف عن هذه الدورة الدموية الصغيرة ، التي لم يوفق جالينوس في إثباتها ، وذلك بمجرد أعمال الفكر فيما عرضه العالم اليوناني»[١٥٠].

٤ ـ ويذكر الدوميلي في تعليقه على هذه الفقرة : « أن أهم كتاب لابن النفيس هو : شرح تشريح ابن سينا . . . وعلى خلاف ما تقدم لا نجد لابن النفيس في الغرب المسيحي إلّا Ebenefis Philosophi AC Medici expositio super quintum Canonem Avicennae Par Andrea Alpago.

وهو قسم من طبعة البندقية لكتب ابن سينا سنة ١٥٤٧ م[١٥١].

٥ ـ يذكر شاخت وبوزورت في تراث الإسلام الفقرة التالية : « كما تذكر العالم الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى وذلك عن طريق الاستنتاج المجرد ، ونعني به على بن النفيس (٦٨٧ هـ/ ١٢٨٨ م) ويبدو الآن أن مايكل سيرفيتوس كان على علم بنظرية ابن النفيس هذه[١٥٢].

٦ ـ وفي فقرة أخرى يذكر شاخت وبوزورت أيضاً ما يلي : « وأخيراً لابد لنا من أن نذكر مثالاً فريداً لتأثير التراث الإسلامي على

---

(١٥٠) الدوميلي ، العلم عند العرب ، ص ٣٢٣.
(١٥١) المرجع السابق ، ص ٣٢٦.
(١٥٢) شاخت وبوزورت ،تراث الإسلام، ص ١٢٦ـ ١٢٧ .

الغرب . ذلك أن مؤسس علم التشريح الحديث أندريا فيساليوس نشر في عام ١٥٣٨ م جداوله التشريحية الستة كدراسة تمهيدية لمؤلفه الرئيسي المعروف باسم الصنعة Fabrica الذي كتبه عام ١٥٤٣ . وقد ورد في النص اللاتيني لهذه الجداول عدد كبير من الملاحظات العربية والعبرية ، بل إن بعض المصطلحات كتبت بحروف عبرية . وقام شارلز سنجر وحايم رابين ببحث دقيق عن هذه الجداول . ولم تكتف هذه الدارسة بشرح النصوص الواردة في الجداول المذكورة شرحاً دقيقاً ، بل أظهرت أيضاً كيف اهتدى فيساليوس إلى معرفة المصطلحات في اللغات السامية التي لم يكن هو نفسه ضليعاً فيها. وهكذا حملت جداول فيساليوس التشريحية التراث العربي في الطب إلى مطالع العصور الحديثة[١٥٣].

٧ ـ تذكر تيرنر في مؤلفها الهام عن « الكشف العلمي » ، وهو كتاب له أهميته وقيمته العلمية خاصة في تتبع أفكار العلم الحديث والتأريخ لها ، تذكر ما يلي : « تعلم فيساليوس أولاً في جامعة لوفين ، وبعد ذلك في باريس ولم يكن طالباً مكباً على دروسه ».

« ووصل إلى علمه أن مثل هذه الفرصة (فرصة تعلم الطب بصورة جادة) مهيأة في بادوا . . . وجد فيساليوس ميداناً للعمل التجريبي في بادوا التي كانت وقتئذٍ مركزاً عالمياً كبيراً للعلم . . . وبعد عمل استمر أربعة أعوام أكمل فيساليوس كتابه المسمى تركيب الجسم البشري الذي نشر في بازل عام ١٥٤٣ . وقداحتوى هذا السفر على اكتشافات مسجلة بدقة عن تركيب الجسم وكيفية قيامه بعمله ، واشتمل على وسائل أيضاً حية بديعة ، كما بذلت عناية كبيرة في إعداده ولاقى الكتاب نجاحاً

(١٥٣) المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

كبيراً . وبعد ذلك باثنتي عشر سنة اقتضى الأمر طبعة ثانية . وفي هذه الطبعة كان فيساليوس أكثر جرأة مما كان في الطبعة الأولى ، إذ أعلن بصراحة عدم موافقته على كثير من آراء جالين، على الأخص ذلك الرأي القائل بأن هناك مساماً في الحاجز الفاصل في القلب ، وقد بينت تعاليم فيساليوس أن الآراء يجب أن تكون مؤسسة على أدلة أصلية لا على مراجع من مراجع الماضي .

وكان عمر فيساليوس وقت نشر كتابه العظيم تسعة وعشرين سنة فقط ، ولكنه أغرى لترك عمله في بادوا ليصير طبيب قصر الملك شارل الخامس . وبعد ذلك انتهى عمله كرجل علم . ولكن سرعان ما أتى ثماره »(١٥٤) .

٨ ـ وتذكر تيرنر عن وليام هارفي (١٥٧٨ ـ ١٦٥٨) الفقرتين التاليتين : « أول مفتاح لهذا الكشف أتى من مدرس هارفي في بادوا ، الذي بين له أن هناك صمامات في الأوردة تسمح بانسياب الدم في اتجاه واحد فقط . وهذه الصمامات إنما هي قلابات تفتح كالباب حينما ينساب الدم ماراً في اتجاه واحد ، ولكنها توصد بأي انسياب في الاتجاه المضاد »(١٥٥) .

« ويخبرنا هارفي أن هدفه كان اكتشاف الحقائق عن طريق الفحص الواقعي ، وليس من كتابات الآخرين . . . واستنتج هارفي من مثل هذه الدراسات استنتاجاً صحيحاً أن نبض القلب يحدث عندما يتقلص القلب ، وأن هذا التقلص يدفع الدم إلى الخارج . . . وبعد ذلك درس هارفي انسياب الدم في الأوردة . . . »(١٥٦) .

(١٥٤) تيرنر ، الكشف العلمي ، ص ٢٥ ، ٢٦ .
(١٥٥) المرجع السابق، ص ٥٥ .
(١٥٦) المرجع السابق، ص ٥٦ .

تكفي الفقرات التي أوردناها لاطلاعنا على موقف العلماء في العالم الغربي . وقبل أن نحلل هذه الآراء نذكر موقفين في عالمنا العربي أحدهما عرضه عمر فروخ ، والآخر عرضه عبد الرحمن مرحبا .

٩ ـ يذكر عمر فروخ عن ابن النفيس ما يلي : « وهو ينصح بممارسة التشريح لأنه يؤدي إلى فهم وظائف الأعضاء ثم إلى البراعة في شفاء المرضى » . . .

«ولمّا شرح القسم المتعلق بالتشريح في كتاب القانون اهتم كثيراً بتشريح القلب وباتصال العروق به وبتشريح الحنجرة لأنه كان يرى صلة بين التنفس والنبض أو بين التنفس وبين انتقال الدم من الرئة إلى القلب ومن القلب إلى الرئة . واكتشف ابن النفيس الدورة الجزئية (الصغرى) للدم (بين القلب والرئتين)[١٥٧].

١٠ ـ أما مرحبا فقد ذكر في كتاب « الموجز في تاريخ العلوم عند العرب » الفقرتين التاليتين :

« وبذلك يكون ابن النفيس قد اكتشف لأول مرة ما يسمى بالدورة الدموية الصغرى قبل سرفيتوس الأسباني بثلاثة قرون . . . ومما يؤسف له حقاً أن ينقل سرفيتوس وصف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى كلمة كلمة فيعزوه لنفسه ويحسبه الناس هو مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، وإلا فكيف نفسر ذلك الشبه الغريب بين الوصفين »[١٥٨].

وفي الفقرة الثانية يذكر مرحباً : « وعلى كل حال أن هذا الطبيب العربي الذي لم يستطع ـ ولعله لم يرد ـ أن يزاول التشريح ، قد تمكن من اكتشاف الدورة الدموية الصغرى التي لم يكتب لجالينوس أن يعرف

---

(١٥٧) عمر فروخ ، تاريخ العلوم عند العرب، ص ٢٩١ .
(١٥٨) عبد الرحمن مرحبا ، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب ، ص ٩٧ ـ ٩٨ .

من أمرها شيئاً ، وذلك بمجرد إعمال الفكر فيما عرضه الطبيب اليوناني واستخلاص ما فيه من وقائع وما يتسع له من إمكانيات »[١٥٩] .

أما العالمان الجليلان بول غليونجي وسلمان قطاية ـ وهما حجتان في الموضوع ـ فإنني أفضل أن استخدم ما ورد عندهما من آراء في نهاية التحليل لنرسم صورة متكاملة لما حدث إبان الفترة التي نتحدث عنها والواقعة بين ابن النفيس وفيساليوس وسرفيتوس، هذا بالإضافة إلى ما ذهبت إليه بعض الآراء الأخرى التي لها أهميتها ودقتها . .

التحليل النقدي السلبي :

يبدو أنه من المحتم علينا أن نلجأ لمنهج التحليل النقدي السلبي ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ، وهذا النوع من التحليل ينصب أساساً على بنية النصوص الداخلية ، وينفذ إلى أعماق النص وما يقرره ، فيتناول بنيته المنطقية والفيلولوجية معاً ، وهنا تكون المهمة التي علينا أن نقوم بها متمثلة في محاولة تكذيب لبنية النص ، وحذف للتناقضات المنطقية ، وبذا يمكن لنا أن نضمن ـ على الأقل ـ قدراً معقولاً من الاتساق المنطقي للحجة التي نقررها .

وربما يكون من المناسب أيضاً أن نشير إلى أن المؤلفين ، على اختلاف كتاباتهم يودون أحد أمرين ، إما تقرير فضل السبق لابن النفيس دون أن تكون لديهم حجة منطقية قوية يستندون إليها ، أو نفي الزعم بأن أحد علماء الغرب فيساليوس أو سرفيتوس اطلع على أي من مؤلفات وكتابات ابن النفيس إبان تلك الفترة . ومن الضروري أيضاً أن نشير أن لا هذا ولا ذاك يعنينا في شيء على الاطلاق ، لأننا لسنا بصدد اثبات أو

---

(١٥٩) المرجع السابق ، ص ٩٨.

نفي : إننا ببساطة بصدد تكوين حجة منطقية لها أهميتها يمكن أن تستخدم بالإضافة إلى البينة التاريخية لتأسيس تصور عام قريب من الحقيقة ، أو يمثلها، ويكشف لنا، ويصور ما حدث بمضمون صدق عال ، بحيث يتيح لنا هذا أن نكشف عن السياق التاريخي الحقيقي لتلك الفترة الهامة من تاريخ العلم .

على هذا الأساس علينا أن ندلي أولاً ببعض الملاحظات الهامة حول النصوص السابقة باستخدام «نصل أوكام »، فنحذف الزائد منها ونختزلها إلى أقل عدد يسمح لنا بتكوين التصور المنشود .

الملاحظة الأولى : أنه يمكن لنا بكل تأكيد أن نستبعد الفقرة (١٠) التي سبق أن ذكرناها اقتباساً من عبد الرحمن مرحبا ، ولهذا الاستبعاد ثلاثة أسباب على الأقل: أما أول هذه الأسباب: فهو ما يذكره مرحبا من أن سرفيتوس ينقل « وصف ابن النفيس للدورة الدموية كلمة كلمة . . . وإلا فكيف نفسر ذلك الشبه الغريب بين الوصفين » . هذه العبارة تماثل التي سبق أن دونها الدوميلي في الفقرة (٣) ويقول فيها « وقد اكتشفنا حديثاً في كتبه وصفاً للدورة الدموية الصغرى تشبه شبهاً غريباً (حتى لتشبه كلمة كلمة) الوصف الذي ذكره سرفيتو » . من الواضح من الفقرتين أن مرحبا نقل وكرر ما ذكره الدوميلي وهو سابق عليه ، ولكن بينما يذكر الدوميلي العبارة على طريق السلب ، يذكرها مرحبا على طريق الإيجاب . وهذا واضح من العبارتين . وثاني هذه الأسباب ، ما يقرره مرحبا أيضاً في الجزء الثاني من الفقرة (١٠) أيضاً بقوله : « وعلى كل حال إن هذا الطبيب العربي الذي لم يستطع ـ ولعله لم يرد ـ أن يزاول التشريح » . هذه العبارة سبق أن قررها ماكس مايرهوف في الفقرة (١) على سبيل التنبيه، حتى يتم استبعاد الفكرة، بقوله « علينا أن نذكر بأن المسلمين لم يكن يسمح لهم بتشريح جسم الإنسان وجسم

الحيوان مطلقاً ، ولذلك كانت التجربة في الطب ممنوعة فعلاً » . هذا بالإضافة إلى أن الدوميلي نفسه في فقرة (٣) تابع رأي ماكس ما يرهوف في عبارته «وينبغي أن نستخلص من ذلك أن هذا الطبيب العربي ، الذي لم يستطع ولم يرد (كما قال ذلك صراحة) أن يزاول التشريح » .

وأمّا السبب الثالث فيرجع إلى أن مرحبا يقرر في الجزء الثاني أيضاً من الفقرة (١٠) أن ابن النفيس توصل إلى كشفه عن الدورة الدموية الصغرى « بمجرد إعمال الفكر فيما عرضه الطبيب اليوناني » ، وهذا القول مستمد مما ذكره الدوميلي في الفقرة (٣) يقول « وذلك بمجرد اعمال الفكر فيما عرضه العالم اليوناني » . وكذلك من عبارة جوزيف شاخت في فقرة (٥) التي يقول فيها « كما نذكر العالم الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى وذلك عن طريق الاستنتاج المجرد » . ومن ثم فإن حجة مرحبا تصبح تكراراً لا طائل تحته ويجب أن تستبعد .

الملاحظة الثانية : أن الدوميلي في حجته التي يعرضها في الفقرة (٣) يريد أن يؤكد ثلاثة معانٍ متصلة وهي : المعنى الأول ، حداثة اكتشاف وصف ابن النفيس للدورة الدموية ، ومحاولة استخدام برهان الخلف على صحة نسبة الاكتشاف لسرفيتو ، وكأن أوربا والعالم اللاتيني كله لم يكن يعلم شيئاً عن كتابات ابن النفيس .

والمعنى الثاني : تأكيده أن ابن النفيس لم يستطع ولم يرد أن يزاول التشريح ، وهو في هذا ينهج طريقة ماكس مايرهوف الذي يريد أن ينبهنا إلى استبعاد الفرضية القائلة بممارسة التشريح في العالم الإسلامي (وذلك وفق ما ورد في الفقرة (١)) حتى يسهل أن تقتنع الأذهان ، بمثل هذه الحجة السلبية ، بأن سرفيتو له فضل السبق ، أو هو توصل للمسألة باستقلال تام عن مطالعة ما ترجم من كتب الطب العربي .

والمعنى الثالث : ما يزعمه الدوميلي متابعاً شاخت في الفقرة (٥) من أن ابن النفيس توصل لاكتشافه من مجرد إعمال الفكر فيما عرضه العالم اليوناني، أي أن ابن النفيس إعمل المنطق بصورة جيدة بحيث استطاع أن يتوصل إلى كشفه . وقد غاب عن بال الدوميلي وشاخت أن جالينوس كان منطقياً من الطراز الأول ، بل ذاعت شهرته المنطقية قبل شهرته كطبيب . أفكان يغيب عن باله مثل هذا الاستنتاج المنطقي ؟ وربما فطن ماكس مايرهوف إلى مثل هذه النقطة فلم يقررها صراحة ، وإنما اكتفى بالتلميح من بين السطور .

ومن ثم فإن حجة الدوميلي التي قررها في الفقرة (٣) لا يمكن الاستناد إليها لأنها تكرار زائد ، ولا تضيف ما هو جديد ، فضلاً عما تتمتع به من اللاتساق المنطقي ، على ما سنبين في فقرة تالية .

أما إذا انتقلنا إلى بقية الآراء المطروحة فإننا نجد أن حججها تنقسم إلى الأجزاء التالية :

١ ـ أن التشريح لم يعرف ولم يمارس في العالم الإسلامي ، وأن الأوربيين هم أول من مارس التشريح .

٢ ـ أن الدوميلي على خلاف مايرهوف وشاخت وبوزورت يذكر أن أندريا الباجو ترجم كتاب ابن النفيس في شرح التشريح . علينا أن نشير أولاً إلى القضية الأولى المتعلقة بالتشريح ، لأنها مع القضية الثانية المتعلقة بترجمة «التشريح» تعتبر بمثابة الدليل السلبي الذي نعوّل عليه .

التشريح في العالم الإسلامي :

لقد عثرنا في الكتابات القديمة على نصين يوضحان بصورة كافية خطأ فكرة المستشرقين عن عدم مزاولة التشريح في العالم الإسلامي ، إذ

يذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان وفي الجزء الأول منه على وجه التحديد ، أنه لما جرح علي بن أبي طالب وجمع له الأطباء ، لما ضربه عبد الرحمن بن ملجم ، وكان أبصرهم بالطب أثير بن عمرو السكوني الطبيب الكوفي المعروف بإبن عمر فأخذ أثير رئة شاه حارة فتتبع عرقاً فيها فاستخرجه وأدخله في جراح الإمام علي ثم نفخ في العرق واستخرجه ، فإذا عليه بياض الدماء ، إذ وصلت إلى أم رأسه ، فقال : يا أمير المؤمنين إعهد عهدك »(١٦٠) . هذا النص يوضح بصورة كافية أن المسلمين مارسوا الجراحة في أوائل عهد الإسلام . إنه حتى يمكن للطبيب أن يتتبع عرقاً ويستخرجه ، لا بد له أن يعرف موضع العروق ، وأيها أساسي .

ومن جهة أخرى تجمع كل الكتابات الي بين أيدينا أن يوحنا بن ماسويه الطبيب الصيدلاني العربي النصراني السرياني ، زاول التشريح ، بلا أدنى شك ، وهاك النص التالي وهو مأخوذ من ابن أبي أصيبعة الذي يروي أن رسول الخليفة جاء إلى يوحنا وقال له : «يقول لك أمير المؤمنين ، زوج هذا القرد من حماحم قردتك ، وكان ليوحنا قردة يسميها حماحم ، كان لا يصبر عنها ساعة . فوجم لذلك ثم قال للرسول : قل لأمير المؤمنين اتخاذي لهذه القردة غير ما توهمه أمير المؤمنين ، وإنما دبرت تشريحها ووضع كتاب على ما وضع جالينوس في التشريح ، يكون جمال وصفي إياه لأمير المؤمنين ، وكان في جسمها قلة تكون العروق فيها والأوراد والعصب دقاقاً ، فلم أطمع في اتضاح الأمر فيها مثل اتضاحه فيما عظم جسمه . فتركتها لتكبر ويغلظ جسمها فأما إذ قد وافى هذا القرد ، فستعلم أمير المؤمنين ، أنني سأضع له كتاباً لم يوضع في

---

(١٦٠) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٩٣.

الإسلام مثله . ثم فعل ذلك بالقرد ، فظهر له منه كتاب حسن استحسنه أعداؤه فضلاً عن أصدقائه»[١٦١] .

وقد ذكر ابن القفطي وابن أبي أصيبعة أيضاً ، كيف أن يوحنا بن ماسويه ـ على ما يروى ـ قتل ابنه . فقد كان ابنه ماسويه متخلفاً،عليه علامات البله ، وأراد يوحنا أن يتخلص منه ، ففصده وخرج إلى الشام ، ومات الإبن، ولما بلغ يوحنا موت إبنه ، قال : «لولا كثرة فضول السلطان ودخوله فيما لا يعنيه لشرحت ابني هذا حياً مثل ما كان جالينوس يشرح الناس والقرود فكنت أعرف بتشريحه الأسباب التي كانت لها بلادته وأريح الدنيا من خلقته ، وأكسب أهلهَا بما أضع في كتابي من صفة تركيب بدنه ومجاري عروقه وأوراده وأعصابه علماً ، ولكن السلطان يمنع من ذلك»[١٦٢] .

نلاحظ على النص الأول والثاني الملاحظات التالية :

١ ـ قول يوحنا «وإنما دبرت تشريحها» ، وهذا التصريح سوف يحمله الرجل إلى أمير المؤمنين بكل تأكيد ، فإن كان هناك نهي عن التشريح تماماً ، كما ذكر ماكس مايرهوف في الفقرة(١) بقوله : «إن المسلمين لم يكن يسمح لهم بتشريح جسم الإنسان وجسم الحيوان مطلقاً» ، لو صدق هذا الرأي ما استطاع يوحنا بن ماسويه أن يصرح للرجل ـ الذي سوف يحمل رده إلى أمير المؤمنين ـ بمثل هذا القول .

٢ ـ قول يوحنا «إنني سأضع له كتاباً لم يوضع في الإسلام مثله» ، هذا القول ، يعني أنه لم تكن هناك كتابات في العالم الإسلامي وقتئذ

---

(١٦١) ابن أبي أصيبعه، عيون الأنباء، ص ٢٥٠ .

(١٦٢) المرجع السابق، ص ٢٥٢ .

وأيضاً ابن القفطي ، تاريخ الحكماء ، ص ٣٩٠ ، ٣٩١ .

تتكلم عن التشريح ، وأن هذا الحدث سوف يعتبر فريداً من نـوعه ، وهو الأول .

٣ ـ تعليق ابن أبي أصيبعـة بالقـول : «ثم فعل ذلـك بالقـرد» ، يعني أنـه شرح القرد ، وفعل به ما أراد ، ووضع الكتاب .

٤ ـ قول يوحنا بعد سماعه موت ابنه المتخلف عقلياً : «لولا كثـرة فضول السلطان ودخوله فيمـا لا يعنيه لشـرحت ابني هذا حيـاً» ، وهذا يعني ثلاثة أمور : أولها ، أنه كان يريد تشريح ابنه حياً ، لكنـه خشي مغبة ذلـك . والثاني ، أنـه شرح ابنـه جسداً ميتـاً ، وهذا يعني عكس مـا زعمه ماكس مايرهـوف . والثالث أن التشـريح البشـري كان يمـارس سـراً في ذلك الـوقت . ولا يمكن بحـال من الأحـوال أن نـزعم مـع مايرهوف أن التشريح لم يزاول في تلك الفترة أو بعدها . وإنما غـاية مـا يمكن أن نقول أن لفـظة «السلطان» التي وردت على لسان يـوحنا تعني خـوفه من رجـال الدين ، ونحن نعلم أن نفـوذ الحنابلة ورجـال الدين في هذا العصر كان قوياً ، ولو كان فعـل ، لكانـوا أقامـوا عليه الحد .

تلك هي الملاحظات التي يمكن لنا أن نستنتجها من يـوحنا بن ماسويه . حدث هـذا في أواخر القـرن الثاني وأوائـل الـقـرن الثالث للهجـرة ، أفلا يمكن لنـا أن نتصور مـع عامـل التقـدم الـزمني ، أن يحدث هذا بصورة أكبر في القرن السادس أو السابع الهجري .

إن مناقشة قضية التشريح هي ما يعنينا هنا ، الآن . ولـدينا من الكتابات العربية بينـات أخرى كثيـرة ترفـع من درجة تـأييد الـفرض القائل بأن العرب مارسوا التشريح . لنستمع إلى بعض علمائنـا اليوم وهم يدللون على صحة البينة .

١ ـ تذهب زيجرد هونكه في مؤلفها القيم الذي تتبعت فيه بصبر وأناه إسهامات العرب والمسلمين في شتى الميادين إلى أن «ابن النفيس اعتمد قبل كل شيء على استقراء الطبيعة بواسطة الملاحظة والدرس والتجربة ، فرأى تبايناً في تركيب أجسام الحيوانات المختلفة ، فأوصى بدراسة التشريح المقارن لكي نلم بالاختلافات . ثم اعتمد التشريح طريقة له في العمل والبحث »[١٦٣] . معنى هذا أن هونكه على خلاف كثير من المستشرقين تجد أن ابن النفيس اختط لنفسه منهجاً دقيقاً وهو «اعتماد التشريح طريقة للعمل» حتى يمكن فهم طبيعة كل عضو ووظيفته وكيفية ترابطه بالتآزر مع الأعضاء الأخرى داخل الجسد .

٢ ـ أما خير الله ، وهو طبيب بارع ، اهتم بدراسة جوانب الطب العربي وإلقاء الضوء عليها بصورة رائعة ، فقد أثبت في مناقشاته التي سطرها منذ أعوام طويلة في كتابه عن الطب العربي ، أن الأطباء العرب كانوا في موقف حرج ، والسبب في هذا أنه في أحيان كثيرة «نجد في الكتابات العربية جملاً كهذه : أن التشريح يكذب ما ذكر ، أو «أن التشريح يبرهن كذا وكذا» مما يدل على أنهم قد شرحوا بعض التشريح ولكن لم يمكنهم المجاهرة به»[١٦٤] . والسبب من هذا كما يقول ابن النفيس في مقدمة «شرح تشريح القانون» ، «فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا في تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ونحو ذلك على قوله (أي جالينوس) إلا في أشياء يسيرة ظننا أنها من أغاليط النساخ ، أو أخباره عنها لم يكن من بعد تحقق المشاهدة فيها . وأما منافع كل

---

(١٦٣) زيجرد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ص ٢٦٥ .

(١٦٤) أمين أسعدخيرالله ، الطب العربي ، ص ١٧٠ .

واحـد من الأعضاء فـإنما نعتمـد في تعـرفهـا على مـا يقتضيـه النـظر المحقق والبحث المستقيم ، ولا علينـا وافق رأي مـن تقـدمنـا أو خالفه»[165] .

٣ ـ أما بول غليونجي ، وهو طبيب ، خبـر الطب وعـرفه جيـداً ، وفهم حس الـطبيب فيعلق على مقدمـة ابن النفيس قائـلاً «هل كـانت هـذه المقـدمة مجـرد (حبر على ورق) ؟ وهـل نقلها نقـلاً عمن سبقوه في التشريح أمثال جالينوس ؟ أم هل كان مردها إلى دروس تعلمها بنفسه في مدرسة التجربة اليـومية ، وهي تـرن في آذاننا رنـة صادقـة كأنهـا صدى الخبرة الشخصية»[166] .

لقـد أراد بول غليـونجـي أن يضفي على المسألـة المشكلة خبـرتـه الشخصيـة كـطبيب يعلم أسـرار المهنـة ، وتصـور نفسـه في عصـر ابن النفيس . ماذا كان سيفعل يا ترى ؟ لا بد وأنه كان سيفـطن إلى أن رجال الدين ، أصحاب السلطة القوية ، في عصـر كان طـابعه القسـوة إلى حد ما، لن يسمحوا للعالم أن يعلن جهاراً نهاراً مزاولتـه التشريـح . إنه إن فعـل سيجلب عليـه النقمة ، وإن سكت يكـون قد كتم الحقيقـة . وفي حـالـة الطبيب فإنه يتحدث دائماً بلغته الطبية إلى أطباء يعلمون ويعـرفون أسـرار المهنـة . كان ابن النفيس بـلا شـك يـدرك تمـامـاً أن الـطبيب البـارع ، والمجـرب الحاذق ، إذا قـرأ كلماتـه بعد سنـوات طوال سيعـرف مقصده تماماً ، وما كان يفعله . وقد دلل بـول غليونجي على هـذه المقولـة أبرع تـدليل وهـو يناقش المسـألـة بـأسلوب تحليلي رائـع من خـلال الأمثلة ، وانتهى إلى التقـريـر الآتي : «وإلى هـذا فـإن أردنـا تكـوين ملف وهمي

---

(١٦٥) هذا الجزء من مقدمة ابن النفيس على شرح تشريح القانـون ، ونسخه بين أيـدينا ، كما أشرنا إلى ذلك في مؤلفات ابن النفيس .

(١٦٦) بول غليونجي ، ابن النفيس، ص ١١٥ .

عنـوانه «هـل مارس ابن النفيس التشـريح ؟» فعلينـا أن نضم إليه مستنـداً ذكرناه عند الكلام عن (شرح القانون) ، وهو نبذة يقول فيها : «التشريـح يكذب هذا» . ولعل السبب في أن ختم ابن النفيس مقدمتـه باقتبـاس من جالينوس هو رد تهمة انتهاك حرمة الجسم البشري ، وهي تهمة كانت في عهده خطيرة ، والتمويه بإسناد أقواله لهذا العالم الفاضل»[١٦٧] .

وربما كان هذا التحليل الذي قدمنـاه يتسق إلى حد كبير مع فقـرة رائعة لها دلالتها ، قدمها لنا سلمان قطايـة في مؤلفه عن «ابن النفيس» ، ذلـك أن انطوان كلوت الـطبيب الفرنسي الـذي أسس مدرسـة الطب في مصـر على عهد محمـد علي ، أراد تشريـح الجثث بغـرض التـدريس ، لكنه اصطدم برجال الدين وقتئذ ، فما كان من كلوت إلا أن ذهب للشيخ العـروسي لمحادثتـه في الأمر ، وهنـا كشف سلمان قـطاية عن نص هـام يعتبر بمثابـة بينة جـديدة نضيفهـا إلى ملف بول غليونجي ، حيث يقول قطاية : «وقد سجل كلوت نص المناقشة التي جرت بينهما في مذكراته ، ويتبين بوضوح أن سبب منع تشريح الجثث هو الخوف من إثارة عـواطف العامة إذ يقول : «واعتقد أنني رأيت في تـردده (أي تردد الشيـخ) الخوف من الاصـطدام بمعتقدات قـديمـة أكثر من شكـه في فكـر مقتنـع نصف اقتناع . والذي أكـد لي هذه الفكـرة ، أنني توصلت إلى الحصـول على موافقته الخفية لتدريس التشريح لكنه أخذ مني عهداً بأن لا أفعل ذلك إلا باحتراس وسرية»[١٦٨] .

لقد استطاع قطاية أن يقوم بمحاولة تحليلية تركيبيـة لنصـوص ابن النفيس ، تماماً كما فعل بول غليونجـي . لقد أثبت غليونجي[١٦٩] نقطة

---

(١٦٧) بول غليونجي ، ابن النفيس ، ص ١١٦ - ص ١١٧ .

(١٦٨) سلمان قطايه، ابن النفيس ، ص ٥١ .

(١٦٩) بول غليونجي ، المرجع السابق ، ص ١١٦ .

الإضافة للرجل في قوله «والتشريح يكذب هذا» . على حين أن قطاية أضاف نقطة أخرى هامة تثبت أن ابن النفيس زاول التشريح ، وهذا ما يتبين من نصه الذي يقول فيه أن الأطباء «كرروا جميعاً خطأ جالينوس . . . ما عدا ابن النفيس الذي يقول منتقداً جالينوس الذي ادعى أن «المرارة ينفذ منها إلى الإمعاء مجرى آخر تنفذ منه الصفراء إلى تجاويف الإمعاء . وهذا لا محالة باطل ، فإن المرارة شاهدناها مراراً ، ولم نجد فيها ما ينفذ لا إلى المعدة ولا إلى الإمعاء» ويعلق قطاية أن هذا الكلام حق ، «فهو يقول أنه «شاهد» المرارة مراراً ، معنى ذلك أنه شاهدها عياناً وعلى الإنسان ، لأن جالينوس يقول إنك «سترى في بعض الحيوان» لذلك أخطأ ، ولأن ابن النفيس شرح الإنسان استدرك الخطأ . وهذا اكتشاف جديد يضاف إلى اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى»(١٧٠) .

لكن يبدو أن ابن النفيس لا زال بحاجة إلى كشف آخر ، وهذا ما سنثبته الآن ، لنضيف إلى ملف ابن النفيس الذي وضعه بول غليونجي كشفاً آخر يؤكد سبقه إلى التشريح .

إن النص الذي أراد غليونجي أن يستشهد به ، ويستخلص منه عبارة «والتشريح يكذب ما قالوه» ويعتبرها بمثابة الكشف ، هذا النص في غاية الأهمية لإضافة بينة إيجابية ترفع من قيمة كشف ابن النفيس وتؤيد زعمنا . لقد اعترض ابن النفيس أصلاً على فهم ابن سينا للقلب وتكوينه ، واعتبر غليونجي أن هذا الاعتراض ، مجرد اعتراض ، والدليل على ذلك أنه ذكر «وهناك نقطة أخرى لم يوافق فيها ابن النفيس»(١٧١) ،

---

(١٧٠) سلمان قطايه، المرجع السابق، ص ٥٨.

(١٧١) بول غليونجي ، المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

واعتقد غليونجي أنه أمسك بالخيط بذكره لعبارة ابن النفيس السابقة عن التشريح ، ولم يتبين ما يقوله النص بدقة ، إذ أن ابن النفيس يقول لنا عن عدد تجاويف القلب عند ابن سينا «قوله وفيه ثلاثة بطون . وهذا كلام لا يصح فإن القلب له بطنان فقط أحدهما مملوء من الدم وهو الأيمن ، والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر ، ولا منفذ بين هذين البطنين البتة ، وإلا كان الدم ينفذ إلى موضع الروح فيفسد جوهرها ، والتشريح يكذب ما قالوه» .

هذا هو النص الذي قدمه ابن النفيس ونقله غليونجي الذي جرى وراء آخر عبارات الرجل ، رغم أن البينة بادية في أول النص . إن ما يذكره ابن النفيس من أن ابن سينا يزعم أن القلب فيه ثلاث بطون ، فإن ابن النفيس كان يقصد أن يثبت لنا شيئاً ، وهو أن ابن سينا اهتم بتشريح الضفادع ، فقلب الضفدع به ثلاثة بطون ، وهذا هو ما جعل ابن النفيس يربط آخر النص بأوله ، وتصبح عبارة ابن النفيس معناها ، «لقد فهم ابن سينا أن هناك مماثلة بين قلب الضفدع الذي فيه ثلاثة بطون ، وقلب الإنسان ، ولكن التشريح يكذب ما ذكره ، لأن قلب الإنسان فيه بطنان فقط ولا منفذ بينهما» .

بهذه الصورة نكون قد كشفنا بينة جديدة ترفع من درجة تأييد أدلتنا على ممارسة ابن النفيس للتشريح . وبذا يصبح ملف ابن النفيس الذي كونه غليونجي يحمل المستندات التالية ، كدليل وبينة إيجابية .

١ ـ المستند الأول : قول ابن النفيس «والتشريح يكذب هذا» . وكان أن وضع غليونجي هذا المستند .

٢ ـ المستند الثاني : قول ابن النفيس «أنه «شاهد» المرارة مراراً» وقد كشف قطاية عن هذا المستند .

٣ ـ المستند الثالث : قول ابن النفيس عن فكرة ابن سينا عن القلب

«قوله وفيه ثلاثة بطون . وهذا كلام لا يصح فإن القلب له بطنان فقط» وهو مستند جديد أضفناه هنا .

هذا عن البينات والمستندات الإيجابية التي ألفنا منها ملف ابن النفيس .

إلا أن هناك بينات ومستندات سلبية نريد أن نؤلف منها ملفاً جديداً نضيفه إلى أقوال علماء الغرب والمستشرقين . وهاك مستنداتنا .

إن بول غليونجي وهو يعالج موضوع ابن النفيس واكتشافه للدورة الدموية الصغرى ، كان من الذكاء بحيث استحق الثناء . إذ إن غليونجي تتبع المسألة في صبر وأناه ، وفضلاً عن أنه كشف أهمية ابن النفيس ، وأظهر أصالة إثبات التطاوي ، نجده قد تسلح بملكه نقد تحليلية قوية مكنته من اكتشاف سرقة أخرى خطيرة تمت في هذا القرن ، لا تقل بحال من الأحوال عن تلك التي حدثت من قبل وسُرق فيها كل مجهود ابن النفيس .

لقد استكثر الغرب على العرب أن يتنبهوا حتى إلى تراثهم ، ويكتشفوا خباياه ، وينفضوا الغبار عن الأغلفة التي طويت في المكتبات ، بعد أن استنفذ الغرب أهدافه منها . ماذا حدث ؟

نحن نعلم أن أستاذ التطاوي في المانيا أرسل خبر ما رواه التطاوي ، إلى المستشرق الألماني طبيب العيون ماكس مايرهوف الذي كان وقتئذ بالقاهرة ، وكان أن بدأ ماكس مايرهوف يكتب عن الموضوع ، ويتتبع مخطوطات ابن النفيس . حدث ذلك في عام ١٩٣٥ ، وقد أبلغ سارتون بالمسألة .فكتب عنها في مؤلفه تاريخ العلم في الملحق [١٧٢] .

---

(١٧٢) بول غليونجي ، ابن النفيس ، ص ٧١.

لكن كيف يمكن لعـربي أن يكتشف شيئاً ! هـذا مستحيـل ، لا بـد من عمل . وهنا ظهرت السرقة الجديدة . وقد ذكر بول غليونجي هذه السرقة الجـديدة في ثـلاث نقاط متتـابعة يقـول : «كتب بيني وهاريـان في سنـة ١٩٣٩ عن ابن النفيس معتـرفين أنهمـا استقيـا معلومـاتهمـا من مقـال مايرهوف (الذي اعترف بفضل التطاوي)»(١٧٣) . ومن الواضح أن تاريخ هذا الاعتراف جـاء بعد صـدور كتابـات مايـرهوف بـأربع سنوات.

لكن وجـد غليونجي أن المؤلفين عـادا في سنة ١٩٤٨ وادعيـا بأن «لـوكلير لم يـذكر ابن النفيس ـ وهـذا عكس الحقيقة ـ وأنّ لهمـا الفضـل في ترجمة نص شرح تشريـح القانـون إذ أنهما طلبـا إلى أديب مغربي أن يتـرجمه لهمـا »(١٧٤) . ثم نسيا كل هذا الذي قالاه ، «وفي سنـة ١٩٥٦ زاد الـطين بله في مقال ثـالث عندمـا ادعـوا أن النص الـذي نشـره عبـد الكـريم شحاده في رسـالته نقـل عنهما . مغفلين القـول بـأن تـرجمتهمـا منقولة عن مايرهوف»(١٧٥) .

ويبـدو أن تواضـع العالم وألمعيتـه ، هـو الأمـر الـذي جعـل بـول غليـونجي يترفـع عن نقد تهـافت مثل هـذه الآراء التي قصـد من ورائهـا سلب عقولنا ، وطمس تـراثنا ، فجـاء بنص من فييت Wiet ليرد بـه على مثل هذا الـزعم قائـلاً : «إلا أن فييت في سنة ١٩٥٦ قـارن الترجمتين ، فـاستنتج أن تـرجمة هـذا الأديب المزعـوم تكاد تكـون نقلت حـرفيـاً من ترجمة مايرهـوف ، بل إن الألفـاظ التي أغفلت من نص أحدهمـا أغفلت أيضـاً من الثاني ، فتسـاءل بشيء من التهكم هل كـان هـذا الأديب غَشَّ الدكتورين بيني وهاريان بأن نقل ترجمة مايرهوف بدلاً من أن يتحمـل هو

(١٧٣) المرجع السابق ، ص ١٠٩ .
(١٧٤) المرجع السابق ، ص ١٠٩ـ ص ١١٠ .
(١٧٥) المرجع السابق ، ص ١١٠ .

مشقة الترجمة»(١٧٦) . وبعد هذا النص لم يعلق غليونجي بكلمة واحدة ، اعتماداً على ذكاء القارىء .

إذن نحن هنا أمام حادث سطو علمي من الدرجة الأولى ، وقد أعلن للناس جهاراً نهاراً . وهذا الحادث يشكل البينة السلبية الأولى التي نؤلف منها ملف علماء الغرب .

أما البينة السلبية الثانية فتتعلق بتأكيد ماكس مايرهوف أن التشريح لم يزاول في العالم الإسلامي على الإطلاق ، لأنه ضد الشريعة . ولست أعرف حقيقة البينات التي استند إليها ماكس مايرهوف وجعلته يزعم مثل هذا التأكيد . إذ من الواضح أن النص الذي سبق أن قدمناه لألدوميلي أشار بوضوح إلى أن اندريا الباجو ترجم شرح تشريح القانون لابن سينا ، وهذا ما تلافاه ماكس مايرهوف الذي زعم أن الباجو لم يترجم لابن النفيس (نص ١) وإنما ترجم لابن رشد وابن سينا (القانون) ويوحنا بن سرابيون ، وبذلك يكون الدوميلي (نص ٤) قد نفى ما زعمه مايرهوف . وقد فصّل بول غليونجي تاريخ أندريا الباجو وكيف أنه نقل كتب الطب العربي من دمشق إلى أوربا ، وإلى بادوا بالذات وهناك ترجمها بمساعدة بعض الأعوان . ولسنا بحاجة إلى تكرار هذه المسألة . وقد أثبتت الكتابات المتأخرة أن أندريا الباجو ترجم فعلاً كتاب «شرح التشريح» . وهنا نستطيع أن نتقدم لإضافة البينة الثانية السلبية .

أما الزعم بأن التشريح لم يمارس في العالم الإسلامي ، فقد جئنا بثلاثة نصوص . أحدهما نص نعتقد أنه ضعيف ويتمثل في حادثة الاعتداء على « علي بن أبي طالب » رضي الله عنه التي ذكرها ياقوت الحموي . والنصّان الآخران جئنا بهما على غير ما يشتهي ماكس

(١٧٦) المرجع السابق ، ص ١١٠ .

مايرهوف ـ الذي يأبى أبداً أن ينسب كشفاً لمسلم ـ وهما ما ذكرناه عن مزاولة يوحنا بن ماسويه للتشريح ، وبعلم أمير المؤمنين . وقد ناقشنا هذا تفصيلاً .

بهذه الصورة نكون قد كونا ملفاً يحتوي على ثلاثة بينات سلبية تقدم دليلاً ضد المستشرقين ، وحيثيات هذا الملف هي :

المستند الأول : سرقات بيني وهاريان لفضل التطاوي في الكشف عن اكتشاف ابن النفيس . وقد قدم لنا بول غليونجي هذا المستند .

المستند الثاني : إثبات الدوميلي (من نص ٤) أن أندريا الباجو ترجم «شرح تشريح القانون» بخلاف ما زعم ماكس مايرهوف .

المستند الثالث : أن يوحنا بن ماسويه زاول التشريح على عكس ما اعتقد مايرهوف ، لكنه خشي سلطة رجال الدين . وقد أضفنا هذا المستند الجديد إلى الملف .

وما نعتقده من جانبنا بعد كل هذه التحليلات أن المستندات ، التي يمكن أن تنضاف إلى هذا الملف أو ذاك ، قد تزداد في الأعوام القادمة ، لاعتقادنا أن البحث في مجهودات ابن النفيس وآرائه الطبية لم ينته بعد .

وهكذا أجدني ، عند هذا الحد ، ميالاً لأن أضع ملف المستندات الذي بدأه الدكتور بول غليونجي وأضاف إليه الدكتور سلمان قطاية ، ثم أضفت إليه مستندين هامين ، أقول أجدني بحاجة لأن أضع الملف كاملاً بين يدي القراء .

الفصل السادس

ابن النفيس بقلم علماء الأمة

ابن النفيس بقلم علماء الأمة

ابن النفيس في الكتابات العربية الكلاسيكية :

هل احتفظت كتب الطبقات العربية الكلاسيكية بصورة معينة لابن النفيس ؟ وهل فهم فضله تماماً ؟ وما هي الصورة التي رسمتها الكتابات العربية الكلاسيكية ، والتي أمكن التعرف على ابن النفيس من خلالها ؟

١ ـ جاء في طبقات الشافعية الكبرى ، لشيخ الإسلام حجة المفسرين والحفاظ تقي الدين السبكي ، أن «(علي بن أبي الحزم القرشي) الشيخ علاء الدين بن النفيس الطبيب المصري صاحب التصانيف الفائقة وله في الطب الموجز وشرح الكليات وغيرهما . كان فقيهاً على مذهب الشافعي ، صنف شرحاً على التنبيه ، وصنف في الطب غير ما ذكرنا كتاباً سماه الشامل قيل لو تم لكان ثلاثمائة مجلدة تم منه ثمانون مجلدة . وكان فيما يذكر أغلب تصانيفه من ذهنه وصنف في أصول الفقه وفي المنطق . وبالجملة كان مشاركاً في فنون . وأما الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله قيل ولا جاء بعد ابن سينا مثله ، قالوا : وكان في العلاج أعظم من ابن سينا . وكان شيخه في الطب الشيخ مهذب الدين الدخوار . توفي في حادي عشر ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة عن نحو ثمانين سنة ، وخلف مالاً كثيراً ، ووقف كتبه

وأملاكه على المارستان المنصوري»[١٧٧] .

٢ ـ أما ابن تغري بردى صاحب النجوم الزاهرة ، فنجده على خلاف السبكي يذكر أن ابن النفيس توفي في سنة ٦٨٧ هـ ، وهي نفس السنة التي توفي فيها الملك الصالح . يقول ابن تغري بردى عن أحداث عام ٦٨٧ هـ «وفيها توفي الشيخ الطبيب علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي المعروف بإبن النفيس الحكيم الفاضل العلامة في فنه ، لم يكن في عصره من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم ، اشتغل على المهذب الدخوار حتى برع ، وانتهت إليه رياسة فنه في زمانه ، وهو صاحب التصانيف المفيدة ، منها الشامل في الطب ، والمهذب في الكحل ، والموجز ، وشرح القانون لابن سينا . ومات في ذي القعدة بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلق به على البيمارستان المنصوري بالقاهرة»[١٧٨] .

٣ ـ لكن ابن كثير في البداية والنهاية أضفى على ابن النفيس شهرة خاصة ، فقد ذكر أنه أيضاً توفي عام ٦٨٧ هـ وهو نفس العام الذي توفي فيه الملك الصالح . يقول ابن كثير عن ابن النفيس تحت عنوان الحكيم الرئيس : «علاء الدين بن أبي الحزم بن النفيس ، شرح القانون لابن سينا وصنف الموجز وغيره من الفوائد ، وكان يكتب من حفظه ، وكان اشتغاله على ابن الدخواري ، وتوفي بمصر في ذي القعدة»[١٧٩] .

٤ ـ وقد ذكر طاش كبرى زاده في مؤلفه القيم مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم : «كتاب الموجز لابن النفيس وهو

---

(١٧٧) تقي الدين السبكي ، طبقات الشافعية ، الطبعة الأولى ، المطبعة الحسينية ، ج ٥ ، ص ١٢٩ .

(١٧٨) ابن تغرى بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧، ص ٣٧٧ .

(١٧٩) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣١٣ .

علي بن أبي الحزم علاء الدين بن النفيس ، الطبيب المصري ، صاحب التصانيف الفائقة في الطب ، منها :

١ ـ الموجز .

٢ ـ وشرح كليات القانون.

وغيرهما . وكان فقيهاً على مذهب الشافعي . صنف :

٣ ـ شرحاً على التنبيه .

وصنف في الطب غير ما ذكرناه كتاباً سماه :

٤ ـ الشامل .

قيل : لو تم لكان ثلاثمائة مجلده ، تم منه ثمانون مجلده .

وكان فيما يذكر يمل تصانيفه من ذهنه . وصنف في أصول الفقه والمنطق . وبالجملة : كان مشاركاً في فنون . وأما الطب فلم يكن على وجه الأرض مثله في زمانه . قيل : ولا جاء بعد ابن سينا مثله . قالوا : وكان في العلاج أعظم من ابن سينا . وكان شيخه في الطب مهذب الدين الدخوار . (توفي) في حادي عشر من ذي القعدة ، سنة سبع وثمانين وستمائة ، عن نحو ثمانين سنة . وخلف أموالاً جزيلة ، ووقف كتبه وأملاكه على المارستان المنصوري»(١٨٠) .

٥ ـ أما إسماعيل باشا البغدادي صاحب هدية العارفين ، فيذكر عنه النص التالي : «ابن النفيس علي بن أبي الحزم القرشي (بفتح القاف وسكون الراء بلده في ما وراء النهر) علاء الدين الدمشقي المتطبب الشافعي المعروف بابن النفيس المتوفى بمصر سنة ٦٨٧ سبع وثمانين وستمائة له من الكتب بغية الطالبين وحجة المتطببين . بغية الفطن من علم البدن ، رسالة الكاملية في السيرة النبوية . رقائق الحلل في دقائق

---

(١٨٠) طاش كبرى زاده ، مفتاح السعادة ، ج ١ ، ص ٣٢٩ .

الحيـل . الشامـل في الطب . شـرح التنبيه لأبي إسحـاق الشيـرازي في الفروع . شرح تقدمه المعرفة لأبقراط في الطب ، شـرح الفصوص لأبي العلا صاعد ، شرح فصول أبقراط في الـطب ، شرح الهـداية لابن سينـا في الطب ، طريق الفصاحة ، كتاب المهذب في الكحل ، موجز القانون لابن سينا في الطب»[١٨١] .

٦ ـ أما اليافعي المكي ، فيذكر في مرآة الجنان عن سنة ٦٨٧ هـ : «وفيها توفي ابن النفيس العلامة عـلاء الدين علي بن أبي الحـزم القرشي الـدمشقي شيخ الـطب بالـديار المصـرية وصـاحب التصـانيف وأحـد من انتهت إليه معرفة الطب مع الذكاء المفرط والذهن الخارق والمشاركة في الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق»[١٨٢] .

٧ ـ وجاء في حسن المحاضرة للعلامة جلال الـدين السيوطي أن : «(ابن النفيس) العـلامة عـلاء الـدين علي بن أبي الحـزم القـرشي شيـخ الطب بالديار المصرية وصاحب التصانيف المـوجزة وشـرح القانـون وغير ذلـك ، وأحد من انتهت إليـه معرفـة الطب مـع الذكـاء المفرط والـذهن الحاذق بالمشاركة في الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق . مـات في ذي القعدة سنة سبع وثمانين وستمائة وقـد قارب الثمـانين ولـم يخلف بعده مثله»[١٨٣] .

٨ ـ أما المقريزي في كتاب السلوك لمعـرفة دول الملوك فيـذكر مـا يلي : «وتـوفي الحكيم عـلاء الـدين أبـو الحسن علي بن أبي الحـزم بن النفيس القـرشي الـدمشقي رئيس الأطبـاء ، عن نحـو ثمـانين سنـة

(١٨١) اسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين، ص ٧١٤.
(١٨٢) اليافعي المكي ، مرآة الجنان ، ج ٤ ، ص ٢٠٧ .
(١٨٣) جلال الدين السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٦٠ .

بالقاهرة»[١٨٤] ، ويضيف أن الملك الصالح دفن بالقلعة بجوار المشهد النفيسي .

٩ ـ أما أحمد بك عيسى فقد أرخ للأطباء ابتداءً من ٦٥٠ هـ ، على غرار ما فعل ابن أبي أصيبعة ، وعَنْوَنَ مؤلفه «معجم الأطباء من سنة ٦٥٠ هـ إلى يومنا هذا : (ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة) ، ووفّى الرجل حقه ، وأضفى لمساته الطبية على كلماته ، يقول عنه :

علي بن أبي الحزم ـ هو الإمام الفاضل الحكيم العلامة علاء الدين بن النفيس القرشي الدمشقي فرد الدهر وواحده وأخو كل علم ووالده إمام الفضائل وتمام الأوائل والجبل الذي لا يرقا علاه بالسلالم والحبل الذي لا يعلق به إلا الغريق السالم لم يبق إلا من اغترف منه غرفة بيده وأخذ منه حلية لمقلده حل مصر في محل ملكها ونسخت لياليها بإشراقه صبغة حلكها وقرأ عليه بها الأعيان وكلاّ فضله وأعان ولم يكن على علم واحد بمقتصر ولا شبهُهُ بالبحر إلا مختصر هذا إلى حسب غير مرءوس وحسب مثل جناح الطاوس وشرف قرشي لا يحل معه في بطحائه ولا يحت في اليد قلاص بطايه زكا محتداً وزها بيتاً لم يضرب غير متوسط السماء وتدأ وكمل ذاته بكرم وخير ومجد في أول وأخير ومزايا استحقاق وسجايا كحواشي النسيم الرقاق ومحاسن كطوالع النجوم ما فيها شقاق . قال ابن أبي أصيبعة (لعله أثير الدين أبو حيان) واشتغل بها في الطب على المهذب الدُّخوار وكان الدخوار منجباً تخرج عليه جماعة منهم الرضى وابن قاضي بعلبك والشمس الكُلّى وكان علاء إماماً في علم الطب لا يضاهي في ذلك ولا يداني استحضاراً واستنباطاً واشتغل على كبر وله فيه التصانيف الفائقة والتواليف الرائعة صنف كتاب الشامل

(١٨٤) المقريزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، رقم ٣، ص ٧٤٤.

في الطب يدل فهرسته على أنه يكون في ثلثمائة سفر هكذا ذكر بعض أصحابه وبيض منها ثمانين سفراً وهي الآن وقف بالبيمارستان المنصوري بالقاهرة وكتاب المهذب في الكحل وشرح القانون لابن سينا في عدة أسفار وغير ذلك في الطب وهو كان الغالب عليه وأخبرني شيخنا أبو الثناء محمود أنه كان يكتب إذا صنف من صدره من غير مراجعة حال التصنيف وله معرفة بالمنطق وصنف فيه مختصراً وشرح الهداية لابن سينا في المنطق وكان لا يميل في هذا الفن إلا إلى طريقة المتقدمين كأبي نصر وابن سينا ويكره طريقة الأفضل الخَوَنْجي والأثير والأبهري وصنف في أصول الفقه والفقه والعربية والحديث وعلم البيان وغير ذلك ولم يكن في هذه العلوم بالمتقدم إنه كان له فيها مشاركة ما وقد أحضر فمن تصنيفه في العربية كتاباً في سفرين أبدى فيه عللاً تخالف كلام أهل الفن ولم يكن قرأ في هذا الفن سوى الأنموذج للزمخشري قرأه على ابن النحاس وتجاسر به على أن صنف في هذا العلم وعليه وعلى العماد النابلسي تخرج الأطباء بمصر والقاهرة وكان شيخاً طوالاً أسيل الخدين نحيفاً ذا مروءة وحكى أنه في علته التي توفي فيها أشار عليه بعض أصحابه الأطباء بتناول شيء من الخمر إذا كان صالحاً لعلته على ما زعموا فأبى أن يتناول شيئاً منه وقال لا ألقى الله تعالى وفي باطني شيء من الخمر وكان قد ابتنى داراً بالقاهرة وفرشها بالرخام حتى إيوانها وما رأيت إيواناً مرخماً في غير هذه الدار ولم يكن متزوجاً ووقف داره وكتبه على البيمارستان المنصوري وكان يغض من كلام جالينوس ويصفه بالعي والإسهاب الذي ليس تحته طائل وهذا بخلاف النابلسي فإنه كان يعظمه ويحث على قراءة كلام جالينوس وكان علاء الدين قد نزل يدرس بالمسرورية بالقاهرة في الفقه وذكروا أنه شرح في أول التنبيه (في فقه الشافعي) إلى باب السهو شرحاً حسناً ومرض رحمه الله تعالى ستة أيام أولها يوم الأحد وتوفي في سحر يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثمانين

وستماية بالقاهرة قال أبو الصفا أخبرني الإمام العلامة الشيخ برهـان الدين الرشيدي خطيب جامع أمير حسين بالقاهرة قال كان العلاء بن النفيس إذا أراد التصنيف توضع له الأقلام مبرية ويدير وجهـه إلى الحائط ويـأخذ في التصنيف إمـلاء من خاطـره ويكتب مثل السيـل إذا انحدر فـإذا كلّ القلم وحفى به رمى به وتناول غيره لئلا يضيع عليه الزمـان في بري القلم قلت وبهذا حدثني شيخنا أبو الثناء محمود قال أبو الصفـا وأخبرنـا شيخنا نجم الـدين الصفـدي أن ابن النحـاس كـان يقـول لا أرضى بكـلام أحـد في القـاهرة في النحـو غير كـلام ابن النفيس أو كما قـال وقد رأيت لـه كتابـاً صغيراً عارض به رسالة حي بن يقظان لابن سينا ووسمه بكتاب فاضل بن نـاطق وانتصر فيـه لمذهب أهـل الإسلام وآرائهم في النبـوات والشـرائـع والبعث الجثماني وخراب العـالم ولعمري لقـد أبدع فيهـا ودل ذلك على قدرته وصحة ذهنه وتمكنه من العلوم العقلية وأخبرني السديـد الدميـاطي الحكيم بالقاهـرة وكان من تـلاميذه قـال اجتمع ليلة هـو وابن واصل وأنـا نائم عندهما فلما فرغا من صلاة العشاء الآخـرة شرعـا في البحث وانتقلا من علم إلى علم والشيخ علاء الدين كل ذلك يبحث برياضة ولا انـزعاج وأما القاضي جمال الدين فـإنه ينـزعج ويعلو صـوته وتحمـر عيناه وتنتفـخ عروق رقبته ولم يزالا كذلك إلى أن أسفر الصبح فلما انفصل الحال قـال القاضي جمال الدين يا شيخ علاء الـدين أما نحن فعنـدنا مسـائل ونكت وقواعد وأمـا أنت فعندك خـزائن علوم وقال أبـو الصفا قـال السديـد أيضاً قلت له يا سيدي لو شرحت الشفا لابن سينا كان خيـراً من شرح القـانون لضرورة الناس إلى ذلك فقال الشفا على فيه مواضع تريد أسها قلت يريد أنه ما فهم تلك المواضع لأن عبارة الرئيس في الشفاء غلقه قـال وأخبرني آخر قال دخل الشيخ علاء الدين مـرة إلى الحمام التي في بـاب الزهـومة فلما كان في بعض تغسيله خرج إلى مسلخ الحمام واستـدعى بدواة وقلم وورق وأخـذ في تصنيف مقالـة في النبض إلى أن أنهاهـا ثم عـاد ودخـل

الحمام وكمل تغسيله وقيل إنه قال لو لم أعلم أن تصانيفي تبقى بعدي عشرة آلاف سنة ما وضعتها والعهدة في ذلك على من نقله عنه وعلى الجملة كان إماماً عظيماً وكبيراً من الأفاضل جسيماً وكان يقال هو ابن سينا الثاني قال ونقلت من ترجمته في مكان لا أعرف من هو الذي وضعه قال شرح القانون في عشرين مجلداً شرحاً حل فيه المواضع الحكمية ورتب فيه القياسات المنطقية وبين فيه الإشكالات الطبية ولم يسبق إلى هذا الشرح لأن قصارى كل من شرحه أن يقتصر على الكليات إلى نبض الحبالى ولا يجري فيه ذكر الطب إلا نادراً وشرح كتب بقراط كلها ولأكبرها شرحان مطول ومختصر وشرح الإشارات وكان يحفظ كليات القانون ويعظم كلام بقراط ولا يشير على مشتغل بغير القانون وهو الذي حسّر الناس على هذا الكتاب وكان لا يحجب نفسه على الإفادة ليلاً ولا نهاراً وكان يحضر مجلسه في داره جماعة من الأمراء والمهذب ابن أبي حليقة رئيس الأطباء وشرف الدين بن صغير وأكابر الأطباء ويجلس الناس في طبقاتهم ومن تلاميذه الأعيان البدر حسن الرئيس وأمين الدولة ابن القف والسديد الدمياطي وأبي الفرج السكندري وأبي الفرج بن صغير وحدثني عنه غير واحد منهم شيخنا أبو الفتح اليَعْمَري قال كان ابن النفيس على وفور علمه بالطب وإتقانه لفروعه وأصوله قليل البصر بالعلاج فإذا وصف لا يخرج بأحد عن مألوفه ولا يصف دواء ما أمكنه أن يصف غذاء ولا مركباً ما أمكنه الاستغنا بمفرد وكان ربما وصف القمحية لمن شكا القرحة والتطماج لمن شكا هواء والخروب والقضامة لمن شكا إسهالاً ومن هذا ومثله ولكل بما يلائم مأكله ويشاكلها حتى قال له العطار الشرابي الذي كان يجلس عنده إذا أردت أنك تصف مثل هذه الوصفات أقعد على دكان اللحّام وأما إذا قعدت عندي فلا تصف إلا السكر والشراب والأدوية وحكى لي شيخنا أبو الثناء الحلبي الكاتب قال شكوت إلى ابن النفيس عُقالاً في يدي فقال لي وأنا والله بي عقال فقلت له فبأي شيء أداويه

فقال لي والله ما أعرف بأي شيء أداويه ثم لم يزدني على هذا (وفي طبقات الشافعية توفي في ١١ ذي القعدة سنة ٦٨٩ هـ عن نحو ٨٠ سنة وفي طبقات الشافعية لابن الملقن مات بالقاهرة سنة ٦٨٧ هـ بمنزله بالمنصورية وقد قارب الثمانين ووقف أملاكه وكتبه على البيمارستان المنصوري ومسالك الأبصار ص ٦١٧ ج ٥ قسم ٣ وفي طبقات الشافعية للسبكي ج ٥ ص ١٢٩ وتاريخ ابن الوردي ج ٢ ص ٢٣٤) .

والمنهل الصافي لابن تغري بردى ج ٢ ص ٣٨٣ قال : أنه له أيضاً كتاب الموجز وكتاب المهذب في الكحل ومختصر في المنطق وشرح الهداية لابن سينا وأنه توفي يوم الجمعة حادي عشر ذي القعدة سنة ٦٨٧ هـ وأوقف كتبه وداره على البيمارستان المنصوري قال الصفدي أنشدني الصفي أبو الفتح ابن يوحنا بن صليب بن مرحا بن موهوب النصراني أنشده لنفسه يرثي علاء الدين ابن نفيس :

ومُسائلي هل عالم أو فاضل أو ذو محل في العُلا بعد العَلا
فأجبت والنيران تضطرم الحشا أقصر فَمُذْ مات العلا مات العلا

١٠ ـ أما أمين خير الله ، فقد عرف للرجل فضله ، وأراد أن يَرُدَّ الحق لأهله ، وينتصر لتراث هذه الأمة . يقول هذا الطبيب العلامة :

أبي الحسن علاء الدين بن أبي الحزم المعروف بإبن نفيس لمع في النصف الأول من القرن الثالث عشر . فقد ولد ونشأ في دمشق وتعلم في مدارسها ولكنه قضى معظم حياته يمارس الطب في القاهرة حيث تولى رئاسة المستشفى المنصوري . وكان دقيقاً في ملاحظاته وتعليقاته ولا يقلد غيره تقليداً أعمى . وإلى جانب الطب برع في اللغة والفلسفة والمنطق والفقه والحديث وألّف عدة كتب أشهرها «الموجز» وهو ملحق لقانون ابن سينا . وله كتاب آخر «شرح تشريح القانون» يوصي فيه بدرس التشريح المقابل ويشير في مقدمته إلى المصادر التي أخذ عنها . ونحن

نورد ما يأتي من استشهاداته . قال في المقدمة :

إن قصدنا الآن إيراد ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس أبي علي بن عبد الله بن سينا في التشريح من جملة كتاب القانون وذلك بأن جمعنا ما قاله في الكتاب الأول من كتب القانون إلى ما قاله في الكتاب الثالث من هذه الكتب وذلك ليكون الكلام في التشريح جميعه منظوماً . وقد صدّنا عن مباشرة التشريح واضع الشريعة وما في أخلاقنا من الرحمة . . . فلذلك رأينا أن نعتمد في تعرف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر خاصة الفاضل جالينوس إذ كانت كتبه أجود الكتب التي وصلت إلينا في هذا الفن مع أنه اطلع على كثير من العضلات التي لم يسبق إلى مشاهدتها . . . فلذلك جعلنا أكثر اعتمادنا في تعرف صور الأعضاء وأوضاعها ونحو ذلك على قوله إلا في أشياء يسيرة ظننا أنها من أغاليط النساخ أو إخباره عنها لم يكن من بعد تحقق المشاهدة فيها . وأما منافع الأعضاء فإنما يعتمد في تعريفها على ما يقتضيه النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك رأي من تقدمنا أو خالفه .

ثم رأينا أن نبتدي قبل الكلام في التشريح بتحرير مقدمة تعين على إتقان العلم بهذا الفن وهذه المقدمة تشمل خمسة مباحث . البحث الأول في اختلاف الحيوانات في الأعضاء . . . . (١٨٥) .

وعند كتابته عن تشريح الشرايين والأوردة في الرئة وصف لأول مرة في التاريخ الدورة الدموية الرئوية . واكتشف قبل سرفيتوس بثلاثة قرون أن الدم ينقى في الرئتين . قال في وصفه تشريح الشريان الوريدي :

(١٨٥) وضع الدكتور خير الله ملاحظة في الهامش تشير إلى أنه نقل هذا عن مخطوطة ملك الدكتور سامي حداد ، وأنه قابلها ببعض النسخ الأخرى .

والذي نقول والله أعلم أن القلب لما كان من أفعاله توليد الروح وهي إنما يكون من دم رقيق جداً وهواء لتمكن أن يحدث الروح من الجرم المختلط منها وذلك حيث تولد الروح وهو في التجويف الأيسر من تجويفي القلب . ولا بد في قلب الإنسان ونحوه مما له رئة من تجويف آخر يتلطف فيه الدم ليصلح لمخالطة الهواء . فإن الهواء لو خلط بالدم وهو على غلظه لم يكن من جملتها جسم متشابه الأجزاء . وهذا التجويف هو التجويف الأيمن من تجويفي القلب . وإذا لطف الدم في هذا التجويف فلا بد من نفوذه إلى التجويف الأيسر حيث يتولد الروح . ولكن ليس بينهما منفذ فإن جرم القلب هناك مصمت ليس فيه منفذ ظاهر كما ظنه جماعة ولا منفذ غير ظاهر يصلح نفوذ هذا الدم كما ظنه جالينوس . فإن مسام القلب هناك مستحصفة وجرمه غليظ فلا بد وأن يكون هذا الدم إذا لطف نفذ في الوريد الشرياني إلى الرئة لينبث في جرمها ويخالط الهواء ويتصفى الطف ما فيه وينفذ إلى الشريان الوريدي ليوصل إلى التجويف الأيسر من تجويفي القلب وقد خالط الهواء وصلح لأن يتولد منه الروح . وما بقي منه أقل لطافة تستعمله الرئة في غذائها(١٨٦) .

وقال ابن النفيس عند كلامه عن تشريح الرئة ما يأتي :

وأما الرئة فإنها مؤلفة من أجزاء أحدها شعب القصبة والثاني شعب الشريان الوريدي والثالث شعب الوريد الشرياني ومجمعها لحم رخو متخلخل . . .

أما حاجة الرئة إلى الوريد الشرياني فلأن ينقل إليها الدم الذي قد لطف وسخن في القلب ليختلط ما يرشح من ذلك الدم في مسام فروع

(١٨٦) عن نفس المخطوطة .

هذا العرق في خلل الرئة بالهواء الذي في خللها ويمتـزج فيه فيكـون من الجملة ما يصلح لأن يكون روحاً إذا حصل ذلك المجموع في التجـويف الأيسـر من تجويفي القلب وذلـك بـإيصـال الشـريـان الـوريـدي لـذلـك المجموع إلى هذا التجويف . . . وأما حاجة الرئة إلى الشريان الـوريدي فإن ينفذ فيه هذا الهواء المخالط ذلك الدم ليـوصله إلى التجويف الأيسـر من تجويفي القلب فيصير من المجموع روحاً[١٨٧] .

ولما تكلم عن تشريح القلب ووظيفته قال :

إن فعل القلب كما بيَّناه أولاً أن تولد الروح الحيواني وتوزعـه على الأعضاء لتحيا . وتوليده ذلك بأن يسخن الدم ويلطف حتى إذا خالطه بما في الرئة من الهواء أصلح ذلك المجمـوع لأن يصير روحـاً حيوانيـاً . . . فلذلك لا بد من أن يكون اغتذاء الروح الذي في القلب بـأن يلطف الدم في القلب ويرق قوامه جداً ثم بعـد ذلك ينفـذ إلى الرئـة ويخالط مـا فيها من الهواء وينطبخ فيها حتى يتعدل ويصلح لتغذيـة الروح . ثم بعـد ذلك أن ينفذ إلى الروح الذي في القلب ويختلط به ويغـذوه . وهذا المـوضع الذي هو في القلب وفيه الروح لا بد أن يكون متسعاً ليتسع بمقدار كفايـة البدن كله من الروح فلذلك لا بد من اشتمال القلب على تجويف يحوي للدم وتجويف آخر يحوي الروح . . . فإن القلب له بـطنان فقط أحـدهما مملوء من الـدم وهو الأيمن والآخـر مملوء من الـروح وهـو الأيسـر . ولا منفـذ بين هذين المنفـذين البتة وإلا كـان الدم ينفـذ إلى مـوضـع الـروح فيفسد جوهرها . والتشريح يكذب ما قالوه والحاجز بينهما أشد كثـافة من غيره لئلا ينفذ منه شيء من الدم أو الروح فتضيـع . فلذلك قـول من قال إن ذلك الموضـع كثير التخلخـل وذلك بـاطل فـإن نفوذ الـدم إلى البطن

---

(١٨٧) من المخطوطة نفسها .

الأيسر إنما هو من الرئة بعد تسخنه وتصعده من البطن الأيمن كما قررناه أولاً .

وقد أعطى ابن النفيس أقرب وصف في زمانه للدورة الدموية في الشرايين التاجية في القلب قال :

وجعله (ابن سينا) الدم في البطن الأيمن منه يغتذي القلب لا يصح البتة . فإن غذاء القلب من الدم المنبث فيه من العروق المنبثة في جرمه .

١١ ـ أما روم لاندو[١٨٨] فقد حاول أن ينصف الرجل في مؤلفه عن «الإسلام والعرب» ، ولم يذهب إلى مقولة علماء الغرب عن ابن النفيس ، وإنما على خلاف ذلك وجدناه يبيّن لنا أهمية الرجل علمياً في نص بليغ يقول فيه :

«لم يكن (أي ابن سينا) بأية حال آخر الأطباء العظام في ذلك الجزء من العالم . إن أحداً من خلفائه لم يبلغ ما بلغه من الشهرة وبُعد الصيت ، ومع ذلك فقد لمع من هؤلاء عدد غير يسير وفقوا إلى خدمة الطب خدمات من الطراز الأول . وليس بين مكتشفات هؤلاء ما هو أكثر ثورية من ذلك الذي تم لابن النفيس ، وهو طبيب مصري أو سوري توفي عام ١٢٨٩ . لقد انتقد نظرية جالينوس ونظرية ابن سينا معاً في ما يتصل بمجرى الدم الوريدي بين البطين الأيمن والبطين الأيسر ، وبذلك أثبت أنه كان رائداً سبق وليام هارفي (إلى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى) . ليس هذا فحسب ، بل لقد اكتشف أيضاً المبادىء الأساسية للدورة الشريانية موضحاً أن الدم كان يطهر في الرئتين حيث يخضع

---

(١٨٨) روم لاندو ، الإسلام والعرب، ص ٢٦٥ .

لعملية تكرير من طريق احتكاكه بالهواء الذي يتلقاه الجسم من الجو الخارجي .

والحق أن اكتشافاته تقدمت اكتشافات العلماء الأوربيين بثلاثة قرون . ومع ذلك فقد ظل مغموراً طوال مئات من السنين ، ولم يشرع العلماء في إدراك شأنه العظيم إلا في أيامنا الحاضرة» .

١٢ ـ وحين كتب عبد الصاحب عمران ، كتابه«أعلام العرب» (١٨٩) ذكر الفقرة التالية عنه :

علاء الدين بن أبي الحزم القرشي الشافعي المعروف بإبن نفيس الطبيب البارع المصري صاحب التصانيف الفائقة . كان فقيهاً وعالماً كبيراً في أصول الفقه وقد تولى التدريس في المدرسة المسرورية بالقاهرة في الفقه وابتنى داراً في القاهرة وفرشها بالرخام وكان عالماً بالمنطق والعربية مشاركاً في عدة فنون وأهمها «الطب» الذي تفوق فيه وبلغ الذروة ، وقد بالغ المؤرخون في اطلاعه الواسع وعلمه الغزير وبراعته المدهشة في الطب ومهارته في العلاج وقد ذكروا أنه كان في قدرته وصحة ذهنه وتمكنه في العلوم العقلية مثلاً رائعاً ، وهو يملي أغلب تصانيفه من حفظه وذهنه ! ولا يحتاج إلى أحد ، وأنه لم يكن في وقته مثله في الطب ولا جاء بعد ابن سينا نظيره وأنه في العلاج أعظم من ابن سينا !! أما شيخه في الطب فهو مهذب الدين الدخوار .

وقد صنف عدة تصانيف كان لها صداها البعيد في العلم : صنف شرحاً على التنبيه وصنف في المنطق وأصول الفقه ، وفي الطب صنف الموجز وشرح الكليات وغيرها ؛ وصنف فيه (الشامل) وهو كتاب قيل عنه

---

(١٨٩) عبد الصاحب عمران الدجيلي ، اعلام العرب في العلوم والفنون، ص ١٩٢ .
والملاحظ من نص الدجيلي أنه لا يثق ، أو هو يندهش كثيراً من المعلومات التي ذكرها .

لو تم لكان ثلاث مئة مجلدة وتم منه ثمانـون مجلدة وتوفي سنـة ٦٨٧ هـ عن نحـو ثمـانين سنـة وخلف مـالاً كثيـراً وأوقف كتبـه وأمـلاكهـه على البيمارستان المنصوري . لأنه لم يكن متزوجاً .

* * *

وبعد ؛ فقد أشارت المقتطفات التي انتزعنـاها من بعض الكتـابات العربية الكلاسيكية ، وبعض الكتـابات الحـديثة أيضـاً ، كلها تشيـر إلى الرجل ، وصفاته ، ومؤلفـاته ، وفضله ، وعلمـه ، ومكانتـه وعلوّ كعبه . وتشير أيضاً إلى أنه عَلَمْ المدرسة الدخـوارية التي أسسهـا الشيخ مهـذب الدين عبد الرحيم الدخوار .

وربمـا كان من الأمـور الهامـة أن نشير إلى أن النصوص التي بين أيدينا أجمعت على أن ابن النفيس وقف أمواله ، وأملاكه ، وكتبه ، على المارستان المنصوري . وحين بحثنا في كتب التـراث التي بين أيدينـا لم نجـد تفصيلات وافيـة وشافيـة عن المـارستـان المنصـوري ، لكن وقعت أيدينا على وثيقـة هامـة وفريـدة ، لم تتكرر بنفس الصـورة ، أو غيرهـا ، وهي الوثيقة التي حفظها لنا المقريزي في خططه . وقبل أن نقدم الـوثيقة المقريزية نشير إلى أن كتب التراث على اختلافهـا تذكـر أن البيمارستـان المنصوري في القاهرة أسس في عهد السلطان منصور قلاوون المملوكي (١٢٧٩ـ١٢٩٠ م) الذي مرض خلال رحلته إلى سوريا ، وكان قد شـاهد البيمارستان النوري في دمشق ، حين أُخِذَ للعلاج ، فأخذته روعة المكان وعظمته ، فآل على نفسه تـأسس البيمارستـان المنصوري ليكـون صرحـاً طبياً شامخاً . فكان أن أنشأ عام (١٢٨٢ م) ، ومن بين الـذين عملوا في هذا البيمارستان العلامة الطبيب النطاسي ، ذائع الصيت ، ابن النفيس .

لكن بول غليونجي ، ذهب في مقالة مبكرة له إلى استبعـاد إمكانيـة أن يكـون ابن النفيس عمـل في المـارستـان المنصـوري الـذي أسسـه السلطان قلاوون وبدأ بناءه في أول ربيع الثاني سنة ٦٨٣ هـ ، يقول بول

غليونجي حول هذه النقطة «ولذا فإنه يجوز الشك في صحة الزعم بأن ابن النفيس عمل في هذا المستشفى . إذ أنه توفي على الأكثر سنة ٦٨٥ هـ ، أي أن سنه كانت قد تجاوزت السبعين عند الإنشاء . ومن الجائز أن يكون قد عمل بالمستشفى العتيق أيْ النوري فترة من حياته إلى أن أنشأ قلاوون البيمارستان المنصوري ، فرأى السلطان أن يسند إدارته إلى هذا النطاسي الكبير ، ليفيد من سمعته الطبية ، وتوجيهه الفني المستنير . وربما يفسر ذلك سر إهدائه مكتبته لهذا المستشفى الناشىء الذي لم يكن قد تيسر له بعد تكوين مكتبة مناسبة»[١٩٠] .

والجدير بالذكر أن بول غليونجي بعد أكثر من عشرين عاماً من مقالته التي دونِ فيها هذا النص ، ذكر في مؤلفه ابن النفيس نفس الكلمات[١٩١] فيما عدا عبارة واحدة قال فيها «كان نهر النيل يحدها غرباً ، وكان مجراه حتى سنة ٦٨٨ هـ - وهي سنة وفاة ابن النفيس . . . »[١٩٢] . وهذا يعني أن غليونجي افترض في المقالة الأولى أن وفاة الرجل كانت سنة ٦٨٥ هـ ، وفي كتابه الأخير جعل وفاته سنة ٦٨٨ هـ ! ومع أن قلة من الكتابات جعلت سنة ٦٨٦ هـ هي سنة وفاة الرجل ؛ إلا أن إجماع الكتابات التي بين أيدينا ينعقد على أنه توفي سنة ٦٨٧ هـ ، وهو التاريخ الذي اعتمدناه . والله أعلم .

والآن إلى وثيقة المقريزي التاريخية حول المارستان المنصوري .

هذا المارستان بخط بين القصرين من القاهرة كان قاعة ست

---

(١٩٠) بول غليونجي ، تشريح القانون لابن النفيس ، تراث الإنسانية ، ص ٦٩- ص ٧٠.

(١٩١) بول غليونجي ، ابن النفيس ، ص ٨٨- ص ٨٩.

(١٩٢) المرجع السابق ، ص ٨٩.

المقريزي ، الخطط المقريزية ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ - ص ٤٠٨ .

الملك ابنة العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله أبي تميم معدّ ثم عرف بدار الأمير فخر الدين جهاركس بعد زوال الدولة الفاطمية وبدار موسك ثم عرف بالملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب وصار يقال لها الدار القطبية ولم تزل بيد ذريته إلى أن أخذها الملك المنصور قلاون الألفي الصالحيّ من مؤنسة خاتون ابنة الملك العادل المعروفة بالقطبية وعوّضت عن ذلك قصر الزمرّدْ برحبة باب العيد في ثامن عشري ربيع الأوّل سنة اثنتين وثمانين وستمائة بسفارة الأمير علم الدين سنجر الشجاعيّ مدبر الممالك ورسم بعمارتها مارستاناً وقبة ومدرسة فتولى الشجاعيّ أمر العمارة وأظهر من الاهتمام والاحتفال ما لم يسمع بمثله حتى تم الغرض في أسرع مدّة وهي أحد عشر شهراً وأيام وكان ذرع هذه الدار عشرة آلاف وستمائة ذراع وخلفت ست الملك بها ثمانية آلاف جارية وذخائر جليلة منها قطعة ياقوت أحمر زنتها عشرة مثاقيل وكان الشروع في بنائها مارستاناً أوّل ربيع الآخر سنة ثلاث وثمانين وستمائة وكان سبب بنائه أن الملك المنصور لما توجه وهو أمير إلى غزاة الروم في أيام الظاهر بيبرس سنة خمس وسبعين وستمائة أصابه بدمشق قولنج عظيم فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد فبرأ وركب حتى شاهد المارستان فأعجب به ونذر إن آتاه الله الملك أن يبني مارستاناً فلما تسلطن أخذ في عمل ذلك فوقع الاختيار على الدار القطبية وعوّض أهلها عنها قصر الزمرّدْ وولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعيّ أمر عمارته فأبقى القاعة على حالها وعملها مارستاناً وهي ذات إيوانات أربعة بكلّ إيوان شاذروان وبدور قاعتها فسقية يصير إليها من الشاذروانات الماء واتفق أن بعض الفعلة كان يحفر في أساس المدرسة المنصورية فوجد حق اشنان من نحاس ووجد رفيقه قمقماً نحاساً مختوماً برصاص فأحضرا ذلك إلى الشجاعيّ فإذا في الحق فصوص ماس وياقوت وبلخش ولؤلؤ ناصع يدهش الأبصار ووجد في

القمقم ذهباً كان جملة ذلك نظير ما غرم على العمارة فحمله إلى أسعد الدين كوهيا الناصري العدل فرفعه إلى السلطان ولما نجزت العمارة وقف عليها الملك المنصور من الأسلاك بديار مصر وغيرها ما يقارب ألف ألف درهم في كلّ سنة ورتب مصارف المارستان والقبة والمدرسة ومكتب الأيتام ثم استدعى قدحاً من شراب المارستان وشربه وقال قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني وجعلته وقفاً على الملك والمملوك والجنديّ والأمير والكبير والصغير والحرّ والعبد الذكور والإناث ورتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يحتاج إليه من به مرض من الأمراض وجعل السلطان فيه فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى وقرّر لهم المعاليم ونصب الأسرّة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج إليها في المرض وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعاً فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها وأفرد قاعة للرمدى وقاعة للجرحى وقاعة لمن به إسهال وقاعة للنساء ومكاناً للمبرودين ينقسم بقسمين قسم للرجال وقسم للنساء وجعل الماء يجري في جميع هذه الأماكن وأفرد مكاناً لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ومكاناً لتركيب المعاجين والأكحال والشيافات ونحوها ومواضع يخزن فيها الحواصل وجعل مكاناً يفرّق فيه الأشربة والأدوية ومكاناً يجلس فيه رئيس الأطباء لإلقاء درس طب ولم يحص عدّة المرضى بل جعله سبيلاً لكل من يرد عليه من غنيّ وفقير ولا حدّد مدّة لإقامة المريض به بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج إليه ووكل الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحيّ أمير جندار في وقف ما عينه من المواضع وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم وجعل النظر لنفسه أيام حياته ثم من بعده لأولاده ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعي فضمن وقفه كتاباً تاريخه يوم الثلاثاء ثالث عشري صفر سنة ثمانين وستمائة ولما قرىء عليه كتاب الوقف قال للشجاعيّ ما رأيت خط الأسعد كاتبي مع خطوط القضاة أبصر أيش فيه زغل حتى ما كتب عليه فما زال

يقترب لذهنه أن هذا مما لا يكتب عليه إلا قضاة الإسلام حتى فهم ذلك فبلغ مصروف الشراف منه في كل يوم خمسمائة رطل سوى السكر ورتب فيه عدّة ما بين أمين ومباشر وجعل مباشرين للإدارة وهم الذين يضبطون ما يشتري من الأصناف وما يحضر منها إلى المارستان ومباشرين لاستخراج مال الوقف ومباشرين في المطبخ ومباشرين في عمارة الأوقاف التي تتعلق به وقرر في القبة خمسين مقرئاً يتناوبون قراءة القرآن ليلاً ونهاراً ورتب بها إماماً راتباً وجعل بها رئيساً للمؤذنين عندما يؤذنون فوق منارة ليس في إقليم مصر أجلّ منها ورتب بهذه القبة درساً لتفسير القرآن فيه مدرّس ومعيدان وثلاثون طالباً ودرس حديث نبويّ وجعل بها خزانة كتب وستة خدّام طواشية لا يزالون بها ورتب بالمدرسة إماماً راتباً ومتصدّراً لاقراء القرآن ودروساً أربعة للفقه على المذاهب الأربعة ورتب بمكتب السبيل معلمين يقرئان الأيتام ورتب للأيتام رطلين من الخبز في كلّ يوم لكلّ يتيم مع كسوة الشتاء والصيف فلما ولى الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك نظر المارستان أنشأ به قاعة للمرضى ونحت الحجارة المبنيّ بها الجدر كلها حتى صارت كأنها جديدة وجدّد تذهيب الطراز بظاهر المدرسة والقبة وعمل خيمة تظل الأقفاص طولها مائة ذراع قام بذلك من ماله دون مال الوقف ونقل أيضاً حوض ماء كان برسم شرب البهائم من جانب باب المارستان وابطله لتأذي الناس بنتن رائحة ما يجتمع قدّامه من الأوساخ وأنشأ سبيل ماء يشرب منه الناس عوض الحوض المذكور وقد تورّع طائفة من أهل الديانة عن الصلاة في المدرسة المنصورية والقبة وعابوا المارستان لكثرة عسف الناس في عمله وذلك أنه لما وقع اختيار السلطان على عمل الدار القطبية مارستاناً ندب الطواشي حسام الدين بلالاً المغيثيّ للكلام في شرائها فساس الأمر في ذلك حتى أنعمت مؤنسة خاتون بيعها على أن تعوّض عنها بدار تلمها وعيالها فعوّضت قصر الزمرّد برحبة باب العيد مع مبلغ مال حمل إليها

ووقع البيع على هذا فندب السلطان الأمير سنجر الشجاعيّ للعمارة فأخرج النساء من القطبية من غير مهلة وأخذ ثلثمائة أسير وجمع صناع القاهرة ومصر وتقدّم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم في الدار القطبية ومنعهم أن يعملوا لأحد في المدينتين شغلاً وشدّد عليهم في ذلك وكان مهاباً فلازموا العمل عنده ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العمد الصوّان والعمد الرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع وغير ذلك وصار يركب إليها كلّ يوم وينقل الانقاض المذكورة على العجل إلى المارستان ويعود إلى المارستان فيقف مع الصناع على الأساقيل حتى لا يتوانوا في عملهم وأوقف مماليكه بين القصرين فكان إذا مرّ أحد ولو جلّ ألزموه أن يرفع حجراً ويلقيه في موضع العمارة فينزل الجنديّ والرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك فترك أكثر الناس المرور من هناك ورتبوا بعد الفراغ من العمارة وترتيب الوقف فتيا صورتها ما يقول أئمة الدين في موضع أخرج أهله منه كرهاً وعمر بمستحثين يعسفون الصناع وأخرب ما عمره الغير ونقل إليه ما كان فيه فعمر به هل تجوز الصلاة فيه أم لا فكتب جماعة من الفقهاء لا تجوز فيه الصلاة فأزال المجد عيسى ابن الخشاب حتى أوقف الشجاعيّ على ذلك فشق عليه وجمع القضاة ومشايخ العلم بالمدرسة المنصورية وأعلمهم بالفتيا فلم يجبه أحد منهم بشيء سوى الشيخ محمد المرجانيّ فإنه قال أنا افتيت بمنع الصلاة فيها وأقول الآن أنه يكره الدخول من بابها ونهض قائماً فانفض الناس واتفق أيضاً أن الشجاعيّ ما زال بالشيخ محمد المرجانيّ يلح في سؤاله أن يعمل ميعاد وعظ بالمدرسة المنصورية حتى أجاب بعد تمنع شديد فحضر الشجاعيّ والقضاة وأخذ المرجانيّ في ذكر ولاة الأمور من الملوك والأمراء والقضاة وذمّ من يأخذ الأراضي غصباً ويستحث العمال في عمائره ينقص من أجورهم وختم بقوله تعالى ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً وقام فسأله

الشجاعي الدعاء له فقال يا علم الـدين قد دعـا لك ودعـا عليك من هـو خير مني وذكر قول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم اللهمّ من ولى من أمر أمتي شيأً فرفق بهم فارفق به ومن شق عليهم فاشفق عليه وانصـرف فصار الشجـاعيّ من ذلـك في قلق وطلب الشيـخ تقيّ الـدين محمـد بن دقيق العيد وكان له فيه اعتقاد حسن وفاوضه في حديث الناس في منع الصـلاة في المـدرسة وذكـر له أن السلطان إنمـا أراد محاكـاة نور الـدين الشهيـد والاقتداء به لرغبته في عمل الخير فوقع الناس في القدح فيه ولم يقدحـوا في نور الدين فقال له أن نـور الدين أسـر بعض ملوك الفرنـج وقصد قتله ففدى نفسه بتسليم خمسة قلاع وخمسمائة ألف دينـار حتى أطلقه فمـات في طريقه قبـل وصولـه مملكته وعمـر نور الـدين بذلـك المال مـارستانـة بدمشق من غير مستحث فمن أين يا علم الدين تجد مالاً مثل هذا المـال وسلطاناً مثل نور الدين غير أن سلطان له نيته وأرجو له الخير بعمـارة هذا الموضع وأنت إن كان وقوفـك في عمله بنية نفـع الناس فلك الأجـر وإن كـان لأجـل أن يعلم أستـاذك علوّ همتـك فـما حصلت على شيء فقال الشجـاعيّ الله المـطلع على النيـات وقـرّر ابن دقيق العيـد في تـدريس القبة *

هـذا ما ذكـره المقريـزي في الخطط ، تفصيـلاً حول البيمـارستان المنصوري ، ولا نكاد نعثر على مثل هذا الوصف الذي يعد وثيقـة هامـة تتصل بتأسيس هذا الصرح الطبي ـ في أي من الكتابات الكلاسيكية التي بين أيدينا .

نتائج البحث

نتائج البحث :

لا يمكن الادعاء بأن دراسة الطب العربي في تاريخه وتطوره قد اكتملت حلقاتها ، كما لا يمكن القول أيضاً أن الأطباء العرب كانوا مجرد نقلة للتراث اليوناني الطبي الذي درسوه وفهموه جيداً. حقيقة وقف الأطباء العرب على كل تفصيلات النظريات الطبية ، خاصة تلك التي ذهب إليها ابقراط وجالينوس ، لكن هذا لم يمنع بحال من الأحوال أن تكون لهم صولات وجولات ، وأن يصححوا بعض الأخطاء التي وقعت في نظريات القدماء .

ومع أن دراسات المستشرقين في أكثر جوانبها تنفي الجدة والأصالة عن الإسهام العربي والإسلامي في التراث الطبي ، إن على صعيد النظرية أو التطبيق ؛ إلا أن هذا الرأي صدر في معظمه عن تعصب أو عدم فهم .

والدراسة التي عرضنا لها في الفصول السابقة لا يمكن بحال من الأحوال الزعم بأنها استوفت جوانب المسألة ، أو أنها حددت صورة التطور الذي حدث بشكل حاسم . لا يمكن أن نزعم هذا . وإنما هذه الدراسة أظهرتنا على بعض النتائج الهامة ، التي قد يكون في اضافتها لنتائج الدراسات الأخرى بعض الفضل في التأريخ لتطور الطب العربي نظرياً وتطبيقياً بصورة أفضل .

وما تشير إليه هذه الدراسة يمكن تحديده في النقاط التالية :

أولاً : فهم العلماء في ربوع الدولة الإسلامية التراث الطبي اليوناني . لقد ترجموه أولاً في ترجمات رائعة جرت معظمها برعاية حنين ابن اسحق الذي جاب البلاد من أقصاها إلى أقصاها بحثاً عن المخطوطات ، وشذرات المفقود منها . وقد اعترف ابن النديم ، وابن جلجل ، وابن القفطي ، وابن أبي أُسيبعة . بأن ترجمات حنين ومدرسته لعبت دوراً هاماً في فهم هذا التراث ، كما نقلت لنا هذه الكتابات عدد ما ترجمه تلامذة حنين ، وتفاصيل الترجمات ، وهل هي عن اليونانية أو السريانية .

ومن الواضح أنه كانت هناك مجالس للطب ، من أشهرها على الإطلاق ذلك المجلس الذي تصدره «يوحنا بن ماسويه » استاذ حنين بن اسحق ، وكان لهذا المجلس الفضل في ازدياد حركة الاهتمام بالتراث الطبي .

وبعد عصر الترجمة بدأت مرحلة الازدهار والتقدم، إذ توفر للأطباء أن يتعلموا على كتابات أكاديمية ، وأن يقوموا بإجراء ملاحظات اكلينكية .

ثانياً : اهتم الأطباء في مختلف مراحل تطور الدولة الإسلامية بتشجيع الخلفاء ، وأصحاب الكلمة والرأي ، على بناء المستشفيات التي كان يطلق عليها لفظ البيمارستان . وقد اتضح من بعض الآراء التي قدمناها أن تأسيس البيمارستانات بدأ في فترة مبكرة من تاريخ الدولة الإسلامية . لقد أسست البيمارستانات في أنحاء كثيرة من ربوع الدولة الإسلامية . كما فهم الأطباء في تلك العهود أن ممارسة الطب تتطلب وجود بيمارستانات ذات نظام دقيق إن من الناحية الإدارية ، أو العلاجية . وجرت امتحانات للأطباء ، وتم مراقبة المهنة . وفرضت

الامتحانات على الأطباء ، ومنحت لهم الإجازات ، وهذا يطلعنا على تنظيم دقيق لممارسة مهنة الطب في العالم الإسلامي . ولم تكن البيمارستانات ذات صفة واحدة ، ولكن تنوعت، بتنوع واختلاف الأمراض ، مما يكشف لنا عن فهم دقيق لطبيعة الأمراض .

ثالثاً : كان المنهج هو الركيزة الأساسية لممارسة الطب ، وفهمه بصورة عصرية . وهذا ما يتضح لنا من الكتابات والدراسات المتعددة التي أجراها الأطباء وقتئذٍ، حيث وجدناهم يتبعون أصول المنهج التجريبي كأروع ما يكون ، قبل أن يكتشف المنهج أو يخترع . وفي هذا الجانب تظهر لنا الدراسة أن الإسهامات المتعددة في هذا الجانب تميزت بسمات وخصائص عامة يمكن أن نجملها فيما يلي من النقاط :

١ ـ قامت الدراسات الطبية على أساس المشاهدة والوصف ، حيث وجدنا الوصف التفصيلي الدقيق للأمراض التي كان يشاهدها الطبيب .

٢ ـ ولم يغب عن بال الأطباء عقد المقارنات بين هذا المرض وذاك ، خاصة وأن بعض الأمراض قد تتشابه في أعراضها .

٣ ـ شخصت الحالات المرضية بعد فحص اكلينيكي دقيق للمريض ، وفهم لطبيعة المرض .

٤ ـ أن الأطباء لجئوا إلى التجربة في كثير من الحالات، وقد التقينا بكثير من النصوص التي تشير إلى هذا المعنى .

٥ ـ أظهرت المقارنات الوصفية لبعض الدراسات ، اخطاء وقعت لدى أطباء اليونان ، خاصة جالينوس ، مما دفع الأطباء إلى تصحيحها .

٦ ـ استخدموا الآلات والأدوات في أجرائهم للجراحات المتعددة التي قاموا بها .

٧ ـ أن الأطباء وقفوا موقف الناقد الفاحص من التراث الطبي اليوناني .

٨ ـ وفي أكثر الحالات وجدنا الأطباء يتبعون أسلوب التحليل الدقيق لكل ما بين أيديهم من تراث سابق :

٩ ـ إن الدراسات التي صدرت عن الطب في العالم الإسلامي اتسمت بالأمانة العلمية الصارمة : لم يدعي هذا الطبيب أو ذاك الفضل في كذا أو كذا ، وإنما كانوا يذكرون الآراء وأصحابها ، ويتحرون الدقة في هذا القول . ثم يصدرون رأيهم عن دراسة واعية . وهذا ما أتاح لهم قدراً أكبر من الثقة بالنفس ، وتكوين رأي حر جريء .

رابعاً : لقد نقلت أمهات المؤلفات والإبتكارات العربية في الظب من العالم الإسلامي إلى أوربا اللاتينية . وقد كشفت لنا الدراسة المركزة التي قام عليها الفصل الرابع ، أن التراث المنقول إلى اللاتينية تميّز بالأصالة والتنوع ، مما دفع بحركة تطور الطب في أوربا اللاتينية خطوات إلى الأمام .

وفي نفس الوقت كشفت الدراسة عن سرقات قام بها أمثال قسطنطين الإفريقي . ومن العجيب أن بعض الدراسات العامة غير المتخصصة وجدت في قسطنطين العالم العظيم ، لكن ماكس مايرهوف اعطى للرجل حقه ، ووصفه بأنه « لص وقح » ، وضع اسمه على مؤلفات بأسرها لم تكن له ، وهذا ما كشفت عنه بعض الدراسات الغربية .

خامساً : ولا يستطيع الغرب أن يتنصل تماماً من تهمة سرقة اكتشاف الدورة الدموية الصغرى ذلك الكشف الذي أنجزه ابن النفيس في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي). ليست هناك أي دلائل تشير إلى اهتمام الأوروبيين بتلك المسألة في القرن الثالث عشر

الميلادي ، حيث كان الطب في أوربا في حالة يرثى لها . وقد حاول بعض مؤرخي الطب والتراث أن يزعموا أنه لم تكن هناك ممارسة فعلية للتشريح في العالم الإسلامي ، لأن التشريح يخالف الشريعة الإسلامية . ومن ثم يصبح من العسير أن نتصور قيام الأطباء بالتشريح .

كان من الضروري تقديم بعض البينات على كذب هذا الادعاء، فقدمنا مثالين يشيران لممارسة التشريح سراً بين الأطباء ، خوفاً من حنق رجال الدين .

سادساً : أشارت هذه الدراسة إلى عمق الإضافات التي قدمها بول غليونجي في بداية الأمر لتدعيم أهمية كشف محيي الدين التطاوي الذي كشف عن ابن النفيس وأهميته عام ١٩٢٤ إبان دراسته في ألمانيا، ثم أشرنا إلى إضافة سلمان قطاية ، وأخيراً البينات والشواهد الجديدة التي توصلت إليها هذه الدراسة . وقد ألفت الدراسة ملفين على درجة من الأهمية : الأول ، ملف لابن النفيس ، والثاني ، ملف للغرب اللاتيني والحديث . وهما معاً يستندان إلى البينات والسلبية والإيجابية .

وأخيراً ، فإن هذه الدراسة ما هي إلا حلقة من حلقات سلسلة متشابكة ومعقدة ، تشابكت أطرافها وجوانبها بصورة تحتاج إلى فهم ودراسة وتحليل أبعد من الجوانب المطروحة هنا . وعاتق هذا يقع على أجيال الباحثين والدارسين والعلماء الشبان ، ومدى ما توفره الدول العربية والإسلامية من رعاية لفهم ونشر حقائق التراث، ومدى اسهام دور النشر الواعية في نشر الثقافة والتراث ، بعيداً عن الربح المادي ، بل بإخلاص وتفان من أجل فهم تاريخ هذه الأمة وهذه الشعوب .

المراجع

أولاً ـ المصادر:

١ ـ ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي (+ ٦٦٨ هـ) ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ .

٢ ـ ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن محمد (+ ٦٣٠ هـ)، الكامل في التاريخ ، القاهرة، ١٢٩٠ هـ.

٣ ـ ابن الأخوة ، محمد القرشي ، معالم القربى في طلب الحسبة ، طبعة كيمبردج ، ١٩٣٧ .

٤ ـ ابن البيطار ، ضياء الدين عبدالله بن أحمد الأندلسي الملقب بابن البيطار ، (+ ٦٤٦ هـ) ، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ، المجلد الأول ، بدون تاريخ .

٥ ـ ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكي (+ ٨٧٤ هـ) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ .

٦ ـ ابن جبير ، أبو الحسن محمد بن أحمد (+ ٦١٤ هـ) ، رحلة ابن

جبير ، طبعة مصر ، ١٣٥٦ هـ.

٧ ـ ابن الجزار، القيرواني (ق ٣ هـ)، كتاب سياسة الصبيان وتدبير أمورهم ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ، الدار التونسية للنشر ، مطبعة المنار ، تونس ، ١٩٦٨ .

٨ ـ ابن جلجل ، أبو داود سليمان بن حسان الأندلسي ، طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، مطبعة المعهد العلمي للآثار الشرقية بالقاهرة ، ١٩٥٥ .

٩ ـ ابن سينا ، الشيخ الرئيس أبو علي بن علي بن سينا (+ ٤٢٨ هـ) ، القانون في الطب ، دار صادر ، بيروت ، بدون تاريخ .

١٠ ـ ابن العبري ، أبو الفرج جريجوريوس الملطي (+ ٦٨٥ هـ) ، تاريخ مختصر الدول ، بيروت ، بدون تاريخ .

١١ ـ ابن العماد الحنبلي ، عبد الحق ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، طبعة مصر ، ١٣٥٠ هـ.

١٢ ـ ابن قتيبة الدينوري ، عبدالله ، الإمامة والسياسة ، طبعة مصر ، ١٣٢٨ هـ.

١٣ ـ ابن القفطي ، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (+ ٦٤٦ هـ) ، تأريخ الحكماء وهو مختصر الزَوْزَنّي المسمى بالمنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، طبعة مصر ، بدون تاريخ .

١٤ ـ ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي (٧٧٤ هـ) ، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، طبعة ١٩٦٦ ، ج ١٢ ، ج ١٣ .

١٥ ـ ابن منظور ، محمد بن مكرم (+ ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، طبعة

دار لسان العرب ، بيروت ، بدون تاريخ .

١٦ ـ ابن النـديم ، أبـو الفـرج اسحق بـن يعقـوب (+ ٣٨٥ هـ) ، الفهرست ، المكتبة التجارية ، مصر ، ١٣٤٨ هـ.

١٧ ـ الأندلسي ، صاعد ، طبقات الأمم ، بيروت ، بدون تاريخ .

١٨ ـ البغدادي ، اسماعيل باشا ، هدية العارفين ؛ أسمـاء المؤلفين وآثار المصنفين ، المجلد الأول ، طهـران ، ط ٣ ، ١٩٤٧ ، استـانبـول ١٩٥١ .

١٩ ـ الحموي ، شهاب الدين أبو عبـد الله ياقـوت بن عبد الله الحمـوي (+ ٦٢٦ هـ) ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧ .

٢٠ ـزادة،طاش كبري ، مفتاح السعادة ومصبـاح السيادة في مـوضوعـات العلوم ، مراجعة وتحقيق كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبـو النور ، دار الكتب الحديثة ، القاهر ، ١٩٦٨ .

٢١ ـ السبكي ، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب ابن تقي الـدين السبكي (+ ٧٧١ هـ) ، طبقات الشافعية ، الطبعة الأولى ، المطبعـة الحسينية ، بدون تاريخ .

٢٢ ـ السيوطي ، جلال الـدين السيوطي الشافعي ، حسن المحاضرة في أخبـار مصر والقـاهرة ، مـطبعـة المـوسـوعـات ، مصـر ، ج ١ ، بـدون تاريخ .

٢٣ ـ المقريزي ، تقي الدين أبي العباس أحمـد بن علي المقريـزي (+ ٨٤٥) ، كتـاب المواعظ والاعتبـار بـذكـر الخـطط والآثـار ، المعـروف بكتاب الخطط المقريزيـة ، دار صادر ، بيـروت ، بدون تـاريخ .

٢٤ ـالمقريزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول المـلوك ، تحـقيق ونشر مصطفى زيادة ، ج ١ ، مطبعة لجنـة التأليف ، القاهـرة ١٩٣٩ .

مراجع ومترجمات:

١ ـ خير الله، أمين أسعد، الطب العربي: مقدمة لدرس مساهمة العرب في الطب والعلوم المتصلة به، المطبعة ـ الأميركانية، بيروت، ١٩٤٦.

٢ ـ الدجيلي،عبد الصاحب عمران، اعلام العرب في العلوم والفنون، ج ٢، النجف، العراق، ١٩٦٦.

٣ ـ الرفاعي،أنور، تاريخ العلوم في الإسلام، دار الفكر، ١٩٧٣.

٤ ـ زكريا،هاشم زكريا، فضل الحضارة الإسلامية والعربية على العالم، القاهرة، نهضة مصر، ١٩٧٠.

٥ ـ طوقان،قدري حافظ، العلوم عند العرب، مكتبة مصر، سلسلة الألف كتاب، (٤)، ١٩٥٦.

٦ ـ عاشور،سعيد عبد الفتاح، المدينة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية، القاهرة، ط ١، ١٩٦٣.

٧ ـ عبد الرحمن،حكمت نجيب، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، وزارة التعليم والبحث العلمي، جامعة الموصل، ١٩٧٧.

٨ ـ عيسى، بك أحمد ، ، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، المطبعة الهاشمية ، دمشق ، ١٩٣٩ .
- معجم الأطباء من سنة ٦٥٠ هـ إلى يومنا هذا : (ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة) ، ط ١ ، مصر، ١٩٤١ .
٩ ـ غليونجي بول ، ابن النفيس ، اعلام العرب (١٠٤) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣ .
١٠ ـ فروخ، عمر ، تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٠ .
١١ ـ قاسم، محمد محمود الحاج ، الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ، بغداد، ١٩٧٤ .
١٢ ـ قطاية، سلمان ، الطبيب العربي ابن النفيس ، اعلام الطب العربي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ١، ١٩٨٤ .
١٣ ـ كامل، محمد حسين ، في الطب والأقرباذين ، مقالة في « اثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية » ، بإشراف اليونسكو ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ .
١٤ ـ كحالة، عمر رضا ، معجم المؤلفين ، بيروت، ج ٧ .
١٥ ـ ماجد ، عبد المنعم ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
١٦ ـ محمد ، ماهر عبد القادر ، حنين بن اسحق : العصر الذهبي للترجمة، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٧ .
١٧ ـ مرحبا ، عبد الرحمن ، الموجز في تاريخ العلوم عند العرب ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٠ .

١٨ ـ منتصــر، عبـد الحليم ، تــاريـخ العلم ودور العلمــاء العـرب في تقدمه ، ط ٤، دار المعارف، مصر ، ١٩٧١ .

١٩ ـ موسى، جلال ، منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ١٩٧٢ .

٢٠ ـ النشار، علي سامي ، مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلمي في العالم الإسلامي ، دار النهضة الغربية، بيروت، ١٩٨٤ .

التـراجم :

١ ـ أ . ج براون ، الطب العربي، ترجمـة أحمد شـوقي حسن ، سلسلة الألف كتاب (٦٣٠)، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

٢ ـ الدوميلي ، العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ، تـرجمة محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار ، دار القلم ، ١٩٦٢ .

٣ـ بامات، حيـدر ، إسهام المسلمين في الحضـارة الإنسانيـة ، ترجمـة مـاهر عبـد القادر محمـد ، دار المعرفـة الجامعيـة ، الإسكندريـة، ١٩٨٣ .

٤ ـ بروكلمان ، تاريخ الأدب العـربي ، ج ٤ ، ترجمـة السيد يعقـوب بكر ورمضان عبد التـواب ، دار المـعارف بمصر ، ١٩٧٥ .

٥ ـ د. م ، تيـرنر ، الكشـف العلمي ، سلسلة العلم للجميـع ، تـرجمـة احمد محمود سليمان ومراجعة د. جمال الفندي ، بدون تاريخ .

٦ـ جـرينباوم، فـون ، حضارة الإسـلام ، ترجمـة عبد العـزيز جـاويد ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٧ ـ روم لانـدو ، الإسلام والعـرب ، تـرجمـة منيـر بعلـبكي ، دار العلم للملايـيـن ، بيروت، ط ١، ١٩٦٢ .

٨ ـ شاخت وبـوزورث، تـراث الإسـلام ، القسم الثـالث ، تـرجمـة حسين مؤنس وإحسان صدقي العمـد، عالم المعـرفة ، الكـويت ، ١٩٧٨ .

٩ ـ لوبون،جوستاق، حضـارة العرب، تـرجمة عـادل زعيتر ، القـاهرة، ١٩٥٦ .

١٠ ـ مـايـرهـوف،مـاكس، العلم والـطب ، مقـال في « تـراث الإسـلام » بـإشراف سيـر تومـاس أرنولـد ، تـرجمـه جـرجيس فتـح الله ، دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الثانـية ،١٩٧٢ .

١١ ـ أولمـان مـانفريد، الطب الإسـلامي ، ترجمـة يوسف الكيـلاني ، مستشفى الصباح ، الكويت ، بدون تاريخ .

المقالات والدوريات :

١ ـ فهرس مخطوطات المكتبة الظاهرية .

٢ ـ مجلة المخطوطات العربية ، المجلد الخامس ، الجزء الثاني .

٣ ـ محمد شحاده كرزون ، ابن أبي أصيبعة ومصنفة في طبقات الأطباء ، التراث العربي ، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد ٢٤ ، يوليو ١٩٨٦ ، السنة السادسة ، ص ١٤٥ ـ ص ١٥٨ .

٤ ـ بول غليونجي ، تشريح القانون لابن النفيس ، تراث الإنسانية ، ص ٦٧ ـ ص ٧٦ ، الهيئة العامة للكتاب ، العدد الأول ، المجلد الأول ، القاهرة .

٥ ـ ا. ر. نوشيراوي ، البيمارستانات الإسلامية في العصور الوسطى ، ترجمة محمد خير بدره ، التراث العربي ، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب ، العدد ٢١ ، اكتوبر ١٩٨٥ ، السنة السادسة ، ص ٢٠٠ ـ ص ٢٠٧ .

فهرست الموضوعات

